العرى فى
صحراء ليبية

الريماوى

BOBST LIBRARY
3 1142 01270 6449

Elmer Holmes
Bobst Library

New York
University

Provided by the Library of Congress
Public Law 480 Program

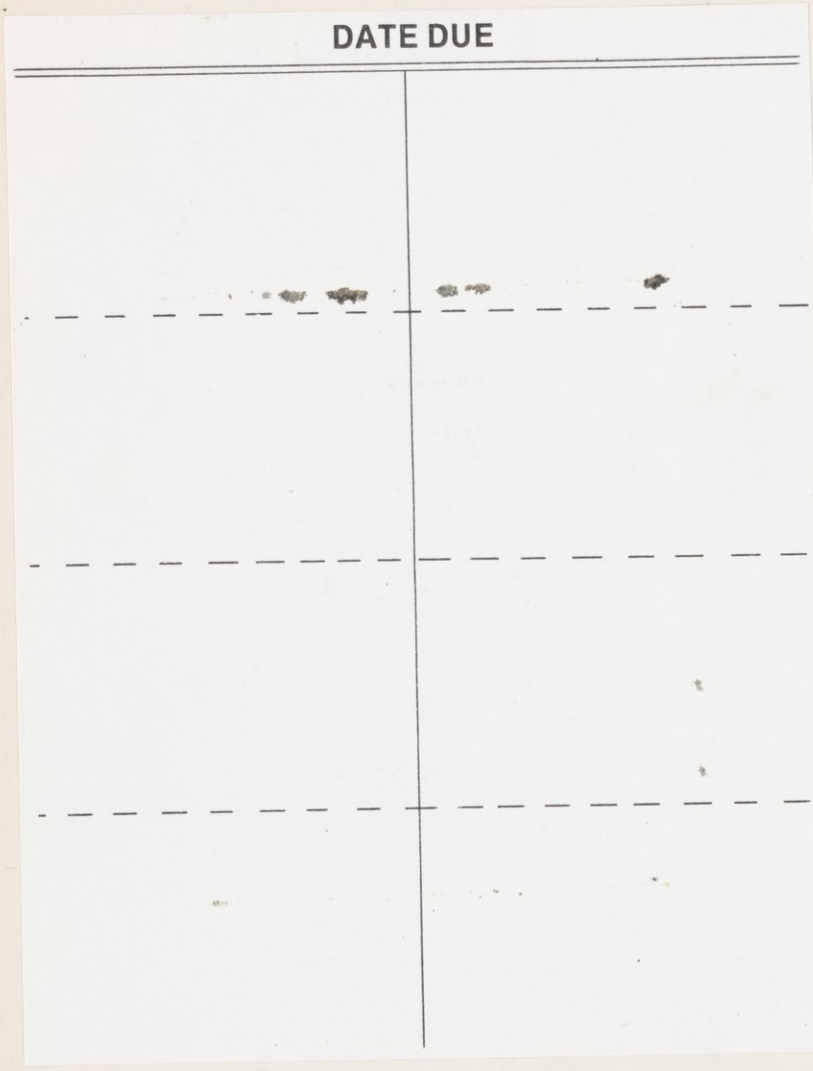

78-960327

وزارة الإعلام
مديرية الثقافة العامة

محمود الربياوي

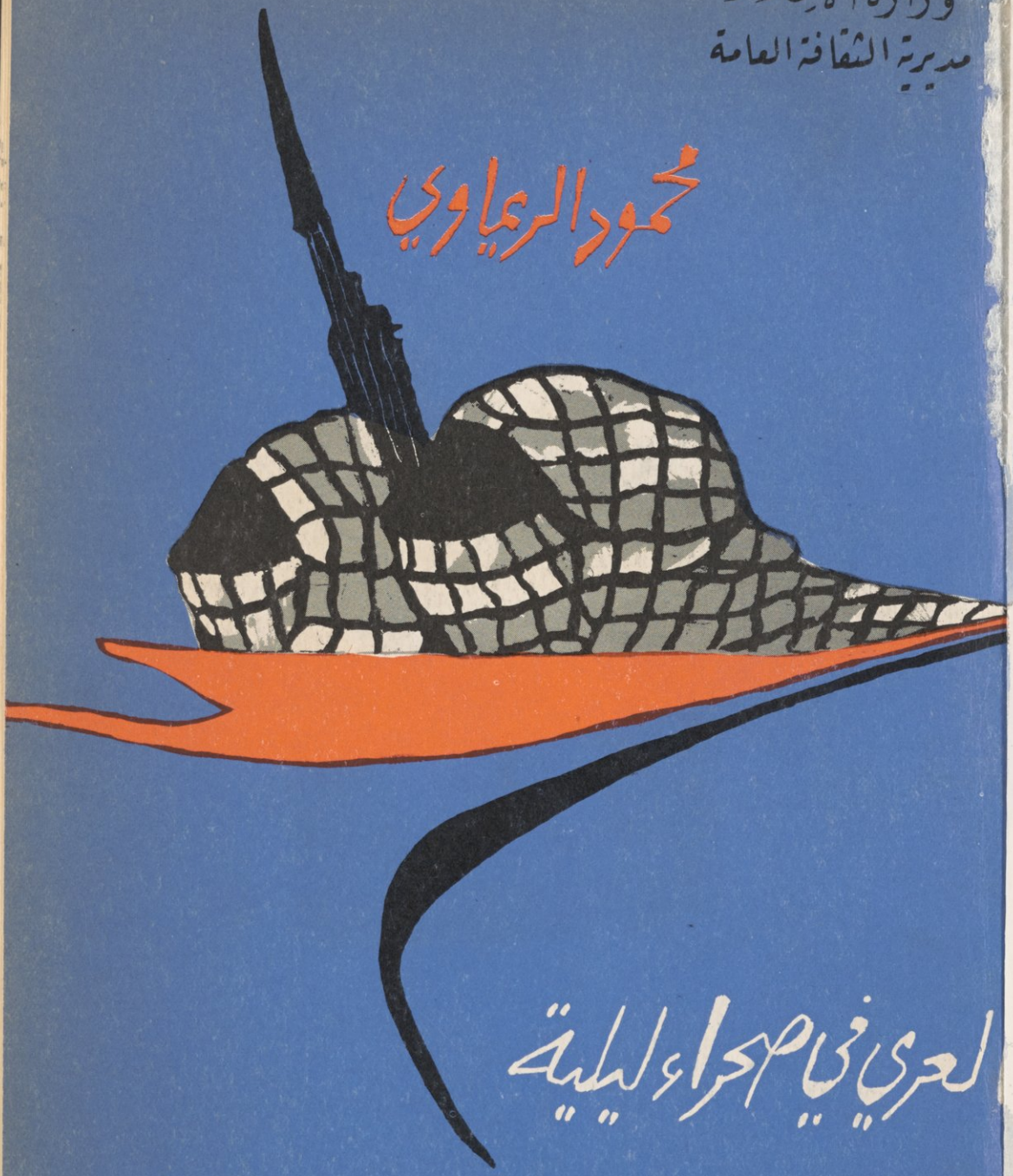

لعري في صحراء ليلية

سلسلة القصة والمسرحية
١١

وزارة الإعلام
مديرية الثقافة العامة

سلسلة القصة والمسرحية
١١

al-Rīmāwī, Maḥmūd

/al-ʿUry fī ṣaḥrāʾ laylīyah/

العري في صحراء ليلية

محمود الريماوي

PJ
7860
.I56
U7
1972
c. 1

أبناء الآخرين

١ ـ طفل غزير الاحلام

عندما اندس في فراشه الصغير ، ظلت الجمل المتوترة تقرع اذنيه ، ولم يكن النوم بالنسبة له مشكلة مستعصية ، فهو سرعان ما يستغرق فيه ، وينفصل عن الوجوه التي تحيطه ولا تمنحه ولو كسرة من طمأنينة ، لكن الصمت الذي يطوقه كان يحتمل أكثر من تأويل ، ولم يجد صعوبة في مقارنته بتلك الليلة التي سافرت فيها أمه ، ولم تعد .

شعر ان الفراش تحت جسده يابس ، وكأنه ينام على أرض عارية . أما الغطاء فلم تكن ثمة حاجة ماسة له ، ما دامت تلك الليلة شديدة القيظ . أراد أن يتحرر من الغطاء ، بيد انه خشي أن ترتطم عيناه بوجه أبيه ، الحافل بترقب قلق ، فسحب الغطاء حتى أخفى وجهه . بغتة ، نهضت أمام وجهه حكايا جدته عن الغولة والجنيات ، فتعرف الى الحقد . انساب على خديه خطان من سائل ساخن ، استطاع أحدهما أن يصل شفته العليا ، فأدرك طعم الملح .

أما ان الفراش يابس ، والغطاء ثقيل ، فان هذا لم يعد من الاهمية بمكان . ذلك ان الغابة لا أحد ينـــام فيها من البشر . كان محاصرا بالوحدة ، وكانت الدنيا نهاراً بدون شمس .

حاول أن يتذكر من الذي أحضره الى هذا المكان الذي يخشى حتى

أن يتخيله ، فلم يفلح • وفي كل لحظة كان ينتظر وحشا يقفز عن شجرة عالية ، ويقبض عليه من كتفيه لينيمه في بطنه • قال الطفل : سأعود الى البيت وأضرب خالتي بحجر ، ولن أحب أبي بعد هذا اليوم ، وسأبيع جرائد وأشتري ما أريد • أين بيتنا ؟ سأل نفسه ، وندم لانه لم يحفظ الجهات الاربع • أخذ يركض بلا توقف ، وكانت الاشجار تركض معه ، وأصوات مجهولة تطارده • وعندما أنهكه التعب ، كان جدار من الحجارة ينتصب أمامه ، فأسقط في يده • وانبثقت من حنجرته صرخات مذبوحة ، فيما هو يقعي على مقربة من الجدار • وان هي الا لحظة نزقة حتى اقترب منه حيوان أشبه بالكلب ، غير ان رأسه ليس مستطيلا ، ولا ينبح • ومن غير أن يفكر ، كان يمشي معه وكأنه ابن الجيران • ثم خرج الحيوان صوب عراء مجاور ، وعندما اقتربا من مغارة تبدو من الخارج صغيرة ، أخذ الحيوان يخفف من سرعته ، ودعاه بعينيه الى الدخول ، فاستجاب • انساب الحيوان الى الداخل بحركة رياضية مدربة ، وتهيأ الطفل بدوره للدخول •• حنى رأسه ، ودفع بجسمه الصغير ، الا ان رأسه اصطدم بحافة الباب العلوية • وعندها تذكر جدته ، وكان الضبع في الداخل يتمطى بارتياح •

أطلق الطفل صرخة ذعر ، أحدثت ثقوبا دامية في جدار الصمت • هدهدته خالته وساد صمت أخرس ، وكأن الصرخة تحمل نبوءة ما •

٢ ـ رجل لم ينتظرها

حدث الرجل نفسه : لم أفرح بهذا البيت بعد •• ومع ذلك لن يصلونا • لم يكن يصدق نفسه ، وكان يرتعد • من ساعة الصبح ، من ساعة ما أشعلوها لم يتناول لقمة واحدة ، واكتفى بالتهام السجائر • شعر بالتشوش فقذف رأسه بين راحتيه ، وتمنى لو كان يملك ترانزستور آخر كي يلاحق الانباء والبيانات • وصلوا المدينة المقدسة ، والجنود يقتلون

في الشوارع مع الاهالى • التصق الرجل في ركن البيت القصي ، وقال لنفسه : متى تتوقف ؟ ولم يتوقف قلبه عن الخفقان • أحس بخجل غامر وقال « والدي هو السبب » • أيقن انه في منتصف الخطر ، وفي هـذا الوقت لا يسأل أحد عن أحد ، فمن أين له بالطعام ؟• ولم يشعر بوطأة الصيام القسري ، بل نبتت على أطراف رأسه آذان جديدة مستيقظة •

بم • بم • ب ـ وصلونا • بم • بم • بم • ـ أين نهرب ؟• بم ـ سأموت كالفطيسة • بمبم ـ لو اني كشقيقتي في الكويت • وتتالت الانفجارات ، وازداد التصاقاً بركن البيت • في الاسبوع الذي سبق عندما أجروها وهمية ، ذهب الى دار السينما • وتفرج كيف تمطر القنابل ، وكيف ينام الموتى بين الخرائب والانقاض ، ولا من يسأل ، وكيف تزلزل البيوت من فوق • وعندما خرج مع الحشر مذهولا ، أصابه الأسف على قروشه التي ذهبت هدرا • وقصد أحد المحلات ليشتري مرآة جديدة ، وعاد الى البيت سليما ، وبالغ في السهر حتى انتهت الحفلة في تلفزيون الجيران •

لكن هذه لا يمكن أن تكون وهمية ، ولا يمكن أن يكون في كابوس• تصور عمره الذي مضى برمته ، وكأنه وهمي • لماذا لم يحفر خندقا ويتمون بالطعام • لكن من كان يتصور انها ستحدث • الكلام لا يجدي ، وأعصابه تتساقط • استعادوا الجبل بعد نصف ساعة ، سيهرولون الينا • تقترب الاصوات وتقتحم آذانه بلا مقدمات • حديث انفجار جد قريب • لو كان مؤمنا لتضرع الى الله على الاقل • وصعدت من قلبه نداءات يائسة : يا الهي ارحمنا • والليل قد انتصف ولم يوقفوها • آه ، الليل مخيف ، في أيام الخير ، فكيف في الحرب ؟• صفارة الخطر تثقب زجاج قلبه • غارة على مدينته ، غارة على مستقبله ، غارة على بيته ، غارة على حياته • يا الهي ارحمنا • لكن كيف سيصل صوته الى الاله ، في خضم هـذه

الاصوات ، الثاقبة لطبلة الاذن ؟ • لو هرب بالامس لنجا • لكن من كان يتصور انها ستحدث • الخروج سيجعله عرضة للقصف المباشر ، الاختباء أفضل • للبيت رب يحميه ، لو يفعلها الاله !• بم بمبم – وكأن صاعقة أصابت دمه ، فاستحال أزرق • لقد انهار المطبخ ، وأخذ الرجل يرتجف ، ولم يدر ماذا يستحسن عليه أن يفعل في حضرة الموت • سوف ينخرس كالعادة ، ويظل ينتظر حتى يوقفوها • ينحسر صمت الاصوات ، وتبدو العاصفة وكأنها تود أن تلتقط أنفاسها • جلبة الجيران يسمعها جيدا ، هذا وقت يصلح جدا للمشاورة •

– هل سترحلون ؟

– انتظرنا في بيتك •

وعندما خرج ليستجلي الموقف ، لم يكن ثمة أحد ينتظره • وكانت معالم الطريق غامضة ، فالدخان المتصاعد يمنع الرؤية ، لكن الرجل لم يمنع نفسه من التساؤل : من كان ، من كان فقط يتصور انها ستحدث ؟•

٣ – امرأة في الشهر الاخير

مضى على اصدار صك زواجها ، أقل بقليل من عشرين عاما • وخلال هذه الاعوام الطويلة ظلت تنتظر بصبر فارغ ، أن تضع مولودا ولو انثى • لم يكن زوجها في مساء العمر ، ولو كانت • وأخذ اليأس يتسرب اليها ، لكنها كانت تقاومه بضراوة ، وتتوسل الى حكايا اللواتي وضعن في وقت متأخر •

لكن يوما غير عادي ، أحست كما لو ان ثمة حركة في داخلها • لم تفصح لزوجها ، غير انها هشت لهذه الفرجة من الأمل • ولم يمر طويل وقت حتى انتفخ بطنها ، وتناقل الاهالي النبأ باندهاش غامر • وذات يوم جاءتها آلام المخاض • جاءها الطلق • قالت لبعلها : – أحضر قابلة •

– أم صابر تقوم بالواجب • قال لها •

وبدأ الألم يعتصرها ، حتى ودت بصدق لو كانت عاقرا لا تنجب • وانبثقت في خاطرها سيرة شقيقاتها اللواتي كان استعدادهن في مستوى الحدث ، فجرفتها الحسرة ، وأدركت أن مصيبة ستكلفها كثيرا ، ولا بد أن تبدأ عما قريب ، فتملكها الرعب • تحرك كيس اللحم في بطنها فتأوهت • أخذت أم صابر تدلك بطنها ، لكنها لم تستطع أن تقطع داء الألم • فلعنت المرأة بعلها ، ولعنت من كان السبب • لكن أحدا لم يكترث• ارتفع الطلق فراحت تصرخ صراخا محموما ، فأنشأت أم صابر في تلاوة الادعية وسورة الكرسي ، بدريه ونشاط ، بينما المرأة تتلوى في فراش القش ، كأفعى ضربت على رأسها • أما زوجها فكان خارج الغرفة ، ينتظر البشارة المستحيلة ، وهو يضبط أنفاسه •

وظلت المرأة في مدار ست ساعات كاملة ، ترتقب لحظة الوضع • وبدا كما لو انها سقطت في حفرة اليأس ، فانكفأت على بعضها ، واستسلمت للنشيج •

غير ان بعلها لم ييأس – أو هكذا بدا – وتضرع الى المولى أن يكون المولود صبيا •

(المرأة التي تزوجت من عشرين قسرا ، لم يكن في بطنها ذكر ولا انثى • لان الماء يكون كل شيء ، ولا يكون ذكرا ولا انثى) •

ويحكى ان الهزال استبد بالمرأة ، وطوتها الخيبة • أما الرجل فقد قيل انه استيقظت فيه رجولته ، وصمم أن يكون له صبي •• على الأقل مجرد صبي ، كأبناء الآخرين •

٤ – يوم من رصاص

ذلك اليوم داهم البشر كأنه طوفان • أشرقت فيه الشمس مبكرة على غير عادتها ، لكن الناس كانوا على عادتهم يستيقظون متأخرين •

ورغم ان الفصل كان صيفا ، وان الصيف قد اشتد قيظه ، الا انها أمطرت • أمطرت بسخاء غير معهود • ولم تحتمل الارض هذا الفيض ، فتوقف الماء في حلقهـــا • وجرف الطوفان الكلاب والقطط والخراف • وتشققت البيوت المتينة ، وتداعت القديمة على ساكنيها ، أما اولئك الذين يقطنون علب التنك ، والبيوت القماشية فقـــد أصبحوا طعما للاسماك • وتطوع رجال الأمن والوقاية ، فلم تثمر جهودهم بعد فوات الأوان •

قال أحدهم : انه صيف ، كيف تمطر في الصيف ؟

قال آخر : انه على كل شيء قدير •

قال آخر : لا تكرهوا أمرا عسى أن يكون خيرا لكم •

قال آخر : انها الأرصاد الجوية الحمقاء •

قال آخر : كان على الاصدقاء أن يلفتونا لذلك •

لكن رجلا انبرى من الزحام ، وقال بصوت عال : لو انتظرنا الطوفان، ما حدث • لكنه النوم • من يحرسكم في النوم •

وانفض الناس ، وكل منهم مأخوذ بالحدث ، ويحدث نفسه عـــن مأساته ، ومأساة أقرب الأقارب والجيران • ولم يعد أحد يطالب الآخر بوفاء التزاماته السابقة ، وانهارت الاتفاقيات والمشاريع والاحلام السابقة•• الا ان ما يلفت الأنظار ، عدم بقاء تقويم قديم واحد على جدران البيوت •

وجهًا لوجه

خرجت باكرا ولم أكن وحدي ، كان هناك أفراد عائلتي وسكان المخيم . في الطريق الشائكة كانت الشمس الحادة تفضح زحفنا ، وكنت أتذكر بيأس حكايا والدي عن سمك يافا ، وبرتقال يافا ، حتى عن سينما « الحمرا » في يافا . لي من العمر عشرون عاما ، أحلق ذقني مرة واحدة في الاسبوع ، قال لي والدي اني أنحدر من بلدة صغيرة في قضاء حيفا (في الملفات الرسمية حيفا سابقا) . لست أبتعد عن الموضوع ، انها تتطاير في رأسي . الجرح هذا ؟ أجل هو الذي عمّدني ، صحيح أنا ادخن وألعب الورق واطارد البنات ، لكن لا أحد يقدر أن يكسر عيني . هذا العام حصلت على الثانوية (كنت خائفا من العلوم) وكنت أطمح أن أكون رجلا مستقرا . كنت أتصور اني سأصطدم بصعوبات كثيرة في سبيل الحصول على عمل مثل شقيقي يونس ، لكنهم لم يرفضوني وها أنذا . عندما صافحت عيني النسر في وجه الملازم أطللت على بلدتي فأصابني ما يشبه الرعشة ، لحظة وأقول لكم ، لم أرها بلدتي ..

قال لي .. لا ارتجالية !. أما الصليب الاحمر فقد أعلمني اني غير مرغوب فيه . اشتركت في أكثر من عملية .. انها تتطاير في رأسي ، وفي كل واحدة كنت أشعر اني أنهض في وجه جميع القيم السفلى التي تقود هذا العالم (كنت الاول في الانشاء والتعبير) . لا أبالغ أبدا اذا قلت

لكم بأني كنت أشعر ان قامتي تطول أكثر بعد كل اشتباك ، كلامي مشوش ومختلط ببعضه ، من قال لكم اني حكواتي أو محاضر ؟! في هذا الوقت آخر ما يجب أن نلجأ اليه الكلام ، الشفوي .

سأكتب اليوم في مفكرتي ان هذا اليوم مسلٍ لاني انشغلت فيه كثيرا بالكلام . فعلا لغة عقيمة . يجب أن نتقن لغة النار الى جانب اللغات الحية. انها تتطاير في رأسي . نعم . تريدون أن أذكر لكم عن عملية واحدة ، كيف أختار واحدة ممن أحب ؟ كنا ثلاثة عشر رجلا أو أربعة عشر رجلا . عدد كبير حقا ، لكن أفعاله كثيرة أيضا . كنا في مغارة تاريخية مهجورة . حولنا أشجار التين والزيتون ، والصخور ، والصمت فاغرا فاه . اعترف الرفاق انهم جياع . وكان بي أيضا جوع . « هو » لم يستطع أن يحضر لنا طعاما ، أما لماذا فلانه لم يستطع . القرية ؟ القرية على بعد كيلومتر واحد (بلدتي أقرب الي من السلاح الى قلبي) ولا بد أن نتزود منها . من يذهب ؟ . لا لن أتأخر ، زيتون وجبنة وسكر ، لدينا شاي وخبز ما يكفينا . خرجت وكنت أتوقع أن أصطدم بالخطر كل لحظة ، ولكن الذي كنت أتذكره بمرارة يوم الخروج ، كيف كنت اواجههم بظهري المسافر ، لم يعد وجهي في ظهري .. أعرف اسمها « ... » أما المدخل المناسب وما بعده فلا أعرف عنه شيئا . القرية من منطقتي وأنا الذي يجب أن أتوجه اليها حتى لو لم أكن خبيرا بمسالكها . لا يهم . زيتون وجبنة وسكر . لا لن أتأخر وقبل منتصف النهار سأحضر . هذا الرجل كأني سبق لي أن رأيته .

ـ يا عم اسأل عن دكانه .

كانت في عينيه حسرة مكبوتة ، وغيمة .

ـ ليش دكانه ، بيتنا قريب ، من خير الله وخيرك ..

كانت الدكانة في نهاية الزقاق ، وليس ثمة جلبة حولها . باب خشبي

مفتوح على أقصاه ، عند المدخل برميل كاز وكيس بصل ، وكرسيان يجلس على أحدهما شاب واضح الحيوية والعافية ، وعلى الآخر تتكوم امرأة . تطلع الشاب الي بزاوية عينه بتركيز بالغ ، وقال بصوت تضامني يرشح محبة – انت منهم ، الله معك ..

رفض أن يأخذ المقابل فأيقنت ان الدنيا بخير . لكن كيف عرف "ني واحد منهم . هل ملابسي تفصح عن ذلك ، لا بد انه تمعن النظر في عيني وعرف اني غريب عن القرية . لو رأتني دورية من أفرادهم هل تعرفني؟. كيس الزيتون والجبنة ابتل كثيرا وأخشى أن ينفرط لا بد أن أسرع . انهم ينتظرونني ، و .. موعد العملية ينتظرني ، آه انها تتطاير في رأسي !

– الى بيتنا .

قلت له وكان يشملني بعيون زرقاء . حاقدة ..

– أين بيتكم .

ولقد كان هذا أعقد سؤال وجه الي في حياتي . كنت أمام امتحان يتعلق عليه مصيري ، وبلدتي في قضاء حيفا لم تنعم بلقاء فارسها ، والرفاق ينتظرون ، لو اني أعرف أحدا في القرية ..

ترى أي بيت أختار

– بيتنا هناك .

أدركت انه غير مصدق فأوجست خيفة ، مشينا معا ، عندما أشرت اليه باصبعي لم أكن أحدد بيتا بالذات ، أي بيت يصلح للاختيار ، وليس ثمة حل آخر . أعترف لكم اني كنت أمشي معه وأنا خائف . صحيح ليس بالسلاح وحده ينتصر المحارب ، لكنه لا ينتصر بدون سلاح أيضا . كنت أعزلا . وعندما أكون هكذا أشعر كأني عاطل عن العمل ، كحملة الثانوية الذين كانوا يتكدسون في مقاهي المخيم .

– نعم ، نعم ، هذا هو البيت .

ابتلعت ريقي بصعوبة وقرعت الباب المعدني ، وقف خلفي كالظل الثقيل • نظرت اليه بطرف عيني ، ولم تكن الجدية السابقة في وجهه • لانه وحده ؟ •

ـ ها هي الاغراض يا أمي •

كانت الام المفترضة تتسربل بمنديل أسود ، في العقد الرابع تقريبا ، وعلى وجهها قلق حزين • للوهلة الاولى نظرت الي بدهشة ، لكنها عندما لاحظته خلفي تبسمت ببشاشة وكأنها تبنتني بدءاً من تلك اللحظة •

انسحب العسكري الى الوراء وهو يهمهم ، بعد أن قذفني بنظرة خبيثة ، لكنها لم تكن عسكرية • شربت كأس الشاي على عجل وان كان مذاقه لا زال الآن على شفتي ، وسألتني عن ابنها وشقيقها لانهم معنا ، وكنت اطمئنها وهي لا تكف عن توجيه ضراعتها الى السقف •

خرجت بلهفة صوب رفاقي ، فقد تأخرت ساعتين والليل ينذر بالهبوط• العملية الآن لا بد في أوجها ، لا بد انهم يقاتلون بضراوة • لا أعرف اذا ما كانوا قد أرجاؤا لحظة التنفيذ باعتبار ان قواهم ليست كما ينبغي ، نفس الطريق • انها لا زالت تتطاير في رأسي • لحظات وأصلهم ، كنت أريد أن أروي لهم عن أعصابي •• الفولاذية • يا لجلال صوت الرصاص ، لم أنس شيئا : زيتون وجبنة وسكر • أنا مخرب ! ، بضع خطوات وأصل • سينفجر في وجهي أحمد ، لكن ماذا أفعل ، لم يكن بيدي • المغارة من الخارج تبدو في صمت • لا صوت ولا نأمة للرفاق • الجوع شل قواهم ، كما ان الانضباط واليقظة ضروريان ، أم تراهم غادروا ؟ • أحمد : ليس ثمة أحمد • مصطفى : لا يرد • خالد • حسن • صبحي• كان صدى الصوت موحشا • أشعلت عود ثقاب بحذر ، وبالفعل •• لم يكن هناك أحد • وجدت سلاحي ملفوفا بقماشة ، وبقايا قطع الخبز

متناثرة • أصابتني حيرة لا مثيل لها ، ولم أدر ماذا يمكنني أن أقرر • جلست أرتاح قليلا وأفكر بالمأزق •

مضت فترة وأعصابي مشدودة • حتى وقفت فجأة ، حملت سلاحي واتجهت الى المدخل الواطىء لاستشرف الطرف حولي • خرجت فاذا بي أقف، وجها لوجه مع •• أحد أفرادهم • لم يكن وحده ، وكنت وحدي • آلاف الصور مرت في مخيلتي تلك اللحظة • لست بحاجة لان أشرح ، كانت مواجهة عارية لا مداورة فيها ، و ••

وأقسم لكم اني لم أمت ، واؤكد اني لم أضع سلاحي •

لا تسألوني عما حدث بعدئذ • فأية دعوى لمزيد من الكلام •• أنم أقل لكم ان الكلام وجدل الحقائق ، آخر ما يجب اللجوء اليه ، هذا الوقت ••؟

العري في صحراء ليلية

- وماذا بعد ؟.

تساءل شوقي بمرارة . انكفأ الى الخلف ، واحساس بالاختلاط يفقد اقدامه رشدها . الظلام يحتوي المدينة تماما ، والاهالى بدأوا في الخفاء يسفرون عن وجوههم الاخرى . الخضار التالفة والعلب الكرتونية الفارغة ومزق الجرائد ، تتناثر في الشارع الذي يمخره بشكل أوحى له بالخراب والحزن .

جاءته رغبة في التوزع في الاماكن الخلفية والغامضة ، لكنه عاد واختصر الرغبة عندما تفرس في دخيلائه بامعان ، فأيقن انه لو فعل ، سيكون ذلك هربا غير مضمون النتائج .

لم يكن قد اقتحمها بعد ، وكان جديدا على تلك المدينة الباهضة ، ترك وراءه مدينة صغيرة تتسع لاسرة واحدة ، بعد أن صادرها العسكر الاعداء .

هذا اليوم ، مثل كل يوم بعد الظهيرة ، ينزلق من بيته الى منتصف المدينة ، حيث يحاول أن يمارس الاحتكاك ، والتعرف الى الاشياء مباشرة ، دون وسيط . أن يهبط كل يوم من الجبل ، كن ذلك يعزز بصورة ما ، من احساسه بالانحدار ، الشوارع وسيعة ، غير انها ملأى بالناس ، لذلك فهو يحشر نفسه ، ويتسكع باحثا عن شيء لا يدريه بالضبط ، وقد يكون

غير مفقود ؟. الأرصفة تحت حذائه يلعنها وليس ثمة ما ينسبه اليهـا ، كتلك العشرين ، تلك الكمية من الزمن التي أنفقها خارج رغائبهواهتماماته الحقة . كان كل همه أن يتصالح مع المدينة الجديدة رغم ثقته بالتنازل ، في سبيل أن ينغمر فيها ، لكنه بوضوح كان يشعر انه مجرد عابر لا يلبث أن يرتد الى الغرب الضائع ، أو يستأنف انفلاته من خيوطه .

وجوه المدينة تختلط بحجم التناقض بين آدمييها . طفل متسخ يسرق شيئا لذيذا فيلتقطه شـرطي حريص على الأمن . عجوز مزمنـة تزحف لصق الجدران . وجه سبق أن رآه هناك ، رجل متكرش ـ تعجبه الدنيا ، فيضحك بصوت كالزلزال . شاب يسأل صاحب البقالة ، ان كان بامكانه أن يشتري أربع سجائر فقط . تقول لها صارت البلد ضيقة . ياي ! ولم تعد تحتمل . اعلانات السينما عن العمالقة والاغراء والمـدن المحترقة ، والضحك المتواصل . الذين ينتظرون توقف العربات التي لا تتوقف . جندي يؤدي التحية لضابط لا يكترث . التي ربما هي . من يدري ربما تكون هي ، فالبشر يخترقون طرقا متعددة وقد يلتقيها عرضا . ويعود الى بيته ـ في بيت عمه ، وهو حائر ان كانت الحياة هكذا ، أم هو لا يحسن الرؤية .

يبحث عنها من زمان ، من أول الزمان . أجل حتى هنا وهو مخلوع ، وكيف يصح ذلك وهناك من يتساقطون فوق أرض يعشقونها حتى الموت ، وكان يفترض به أن يكون كذلك ؟.

لا يمكن لأي كان أن ينكر مدى تحولـه بـين السادسة عشره والعشرين ، فخلال هذه الفترة الشائكة ، أحس شوقي بضآلته ازاء العالم الكبير ، اذ كان كثيرا ما تصيبه نوبات دوار فظ ، أو حالات اختناق مريع عندما تتلكأ رغباته في التحقيق . كان العالم يبدو له شديد التماسك ومغلقا ، وقادرا على احتواء أي خروج عن منطقه ، وان أية محاولة للتفلت منـه

تصيب الشخص بشعور فقدان الجاذبية دون عزاء ، مثل العري في صحراء ليلية (عندما خرجت وكنت أجر هزيمتي كالعربة وراء الحصان ، هبطت شهواتي الى مكان مظلم سحيق) .

ذات ظهيرة كان عائدا من مشوار مضن بعيد . ريقه جاف كالعادة ، ورأسه به وجع من ساعة ، وكان متعبا وكل من في زحام الشارع غريب عنه . وعبر لحظة كثيفة عميقة ، رأى المرأة بكل عيونه ، فأحس احساسا باهرا بأن أعصابه تشهق من المفاجأة ، وأشواقه تستيقظ وتتحرك الى أكثر من جهة .

وكأن المرأة أضاءت في النهار . طويلة في مستوى التطلع اليها . ولها سحنة متشربة من ماء الحنان ، لا تقبض عليها الذاكرة من أثر الانبهار ، ويمضي طيفها وراء اللاوعي . بيضاء كأنها زنبقة جسدية . ولها أيضا صوت واطىء دفيء ينبه التطلعات المنسية .

الوقت مساء ، الشمس تسحب أشعتها الاخيرة وتحترق ، الناس في الشوارع يطاردون شواغلهم أو يتحلقون حولها ، شوقي يستند الى مصباح كهربائي ، باعة الصحف المسائية أصواتهم عالية من الرجال في زفافهم الدامي مع الارض . شوقي يرد التحية لصديق تعرف اليه في المقهى ونسي اسمه . صديق آخر مقبل عليه ناشطا ويشمله بنظرات تساؤل واستنكار ، مشفوعة بابتسامة معلقة على شفتيه .

ـ ماذا تفعل هنا ؟ .

ـ أقف .

ـ هم يموتون وقوفا ، وأنت كذلك .. مع الفارق .

ـ وأنت تموت ماشيا تثرثر .. مع المقارنة .

ـ واقف كأنك تنتظر فرجا ..

ـ أنتظر أن تفرج عني .

- كتاب جيفارا الاخير هل قرأته ؟.
- أعتقد ..
- وصدقنا طاهر ما أخباره ؟
- اشترى حذاء بمناسبة التنزيلات .
- وغير ذلك ؟.
- قال انه أصبح سريعا ما يضجر ، وقد يستقيل ويسافر .
- لقد سافر .
- لماذا تسأل اذن .. أين سافر ؟.
- الى الغرب من بيت حبيبتك .. ألا تفكر مثله في السفر ؟.
- هل تكف عن اثارة الأسئلة ؟.
- أنت تصر على التمويه .
- (تطلع شوقي الى مهرجان الألوان في الأفق) .
- وتخترع هموما .. لا بد من أن تندم .
- قد يكون الندم مطهرا .
- ولكنه يفضي أحيانا الى الانتحار .

في مطلع الشارع تجمهر المارة حول حادث اصطدام ، استقطب العابرين الذين يفقدون الوجهة في المسير . ظل شوقي مزروعا في مكانه ، وكأن أمرا لم يكن . هرول الآخر راكضا وكأنه تأخر عن مهمة مستعجلة . شيعه شوقي ، وعاد الى محاورة الوقت والتطلعات . ان الوقت الذي حدده قد أزف الآن ، وها هي تطل من بعيد مثل الرعد .

تهيأ وتطلع حواليه كأنما يقدم على اثم . وفيما هي تقترب ارتبكت أقدامها للحظة ولم تلبث أن دلفت الى بناية شاهقة بصحبة طفلة . (من جديد أجر العربة ورائي . كنت أشتاق أن اولد مرة اخرى في المنفى . لم أبدأ بعد . لكني أحبهـــا . يوم خرجت شعرت ان ولادتي كانت في

الأصل عسيرة ، جدران الرحم ضيقة ، وعسيرا ما أطل) .

تأرجح الرصيف تحت أقدامه ، وبدأت الخيبة تقرضه من الداخل . ثم تبين ان السابلة تجمعوا في مطلع الشارع حول سائحة طليعية ، من بلد أشقر . فدخل دارا للسينما دون أن يتبين اسم الفيلم . وهناك أصابته نوبة دوار فظ ، كثيرا ما تداهمه عندما تتلكأ رغبته في التحقق . شاهد الفيلم ينظر اليها ولا يراها . البطلة تفضح له صندوق أسرارها ، ويتفقان على عدم الزواج .

وقف الرواد الذين يشاهدون الفيلم للمرة غير الاولى متأهبين للخروج . المدينة فارغة تستسلم للنعاس ، وبقايا المحال المفتوحة تبدو مثل أفواه تتثاءب . دوريات الشرطة متسمرة بارتخاء أمام الشركات والمصارف . السماء زرقاء على سوداء والقمر أصفر والنجوم تحصى . نسيم هادىء رائق يتسلل الى رئتيه . لم تكف به رغبة في العودة الى بيت الاب – في بيت عمه .فهل تكون الحياة هكذا ، وماذا بعد ؟. تساءل بمرارة ، وأطلق أقدامه في الشوارع ، التي تصل ولا تصل . حاول أن يضيع في خلفيات المدينة غير المطروقة ، لكنه عاد ونبذ الفكرة . وقع أقدامه يسمعها جيدا . في داخله أكثر من شخص يتكلم ، حاول أن يتسمع فلم يستطع تمييز الأصوات . وظل يجدف في الشارع وحيدا حتى نهره شرطي مستيفظ وسأله عن هويته . كان قد قطع مسافة طويلة ، ووصل الى ظاهر المدينة . الساعة بعد منتصف الليل وحوله فراغ الحياة الاسود ، أما امتداد الشارع الموغل في الوحشة ، فيؤدي الى مدينة صغيرة ، صادرها العسكر الاعداء ، ذات ظهيرة محرقة .

علبة تبغ لعبدالحميد

قبل مدة طويلة لم يعد يذكرها ، دق شخص غريب على القضبان التي يستند اليها ، فأشار النزيل عبدالحميد الى صدره المكشوف ، متسائلا ، فأومأ الآخر برأسه .

ـ نعم . انت .

ـ ماذا تريد ؟ .

ـ انت تنسى . أنا اخوك الكبير . لن تبقى هنا ، قدمت طلباً للافراج عنك . ثم دعاه الى الصبر والصلاة ، ونفحه علبة تبغ ، وركز عليه نظرة حنو قبل ان ينصرف .

هذا الأخ يأتيه مرة في الاسبوع ، يوم عطلته ، يعده دائماً باطلاق سراحه ، ويحيطه بأخبار الاهل ، ثم يلقمه علبة تبغ ، دون ان ينسى دعوته الى الصبر وانتظار الفرج .

ومن بعد حدثت أمور شتى . بعضها يستعصي على الفهم . بعضها لا يصدق . بعضها يدعو للمرارة . وبعضها للدهشة والاستبشار .

وانتهت الى ما يشبه القطيعة ـ خاصة من طرف النزيل ، وبالتالي الى ما هو غير متوقع على الاطلاق ، في الزنزانة ، وفي ما حول .

منذ المرات الأولى التي جاءه فيها ، فهم عبدالحميد (وحدس بذلك من قبل) ان بقاءه الى الابد ، في مكانه ، ليس هو الأمر الطبيعي ، وان

خروجه أمر محتوم بناء على طلب الاخ ، أو بوسيلة أخرى • وظل النزيل ، من طيبة وقناعة ، وفياً لبادرة الأخ ، الى درجة ، كان ينفق معها كل وقته في الضراعة والانتظار ، دون ان يحرك ساكنا • كان يخشى لو تجرأ وفعل أي شيء ، ان تنهار الثقة بينهما ، أو يحصل سوء تفاهم ، ينسف العلاقة التي لا غيرها • لذلك ركن الى الصمت ، كأنما استحال اخرساً ، ثم في مضغ الدقائق بلا جدوى في الزنزانة التي لا يذكر انه اقام في مكان غيرها •

يبدو ان الزنزانة قائمة في بقعة نائية من صحراء ما ، منسية خلف ظهر العالم • حول القضبان تتسلق متشابكة نباتات شوكية بألوان رمادية وصفراء • يتيسر له دائماً ان يتسمع أصواتاً ناعقة ، أو صدى لصرخات مذبوحة ، والهواء الأغبر ينقل رائحة عفونة تقبض الرئتين • والى ذلك هناك الزوار ـ وقد يكون لهم اسم آخر ، وهم متباينو السحن والانفعالات، كثيراً ما يأتون دون مقدمة أو موعد ، يتفرجون عليه بعطف واستغراب ، وعلى البشر الآخرين ، ويمضون كأنهم لم يأتوا •

مع تراخي الوقت استبد به ضجر ، واستيقظ لديه الشك في أمر العلاقة ، حتى نخر اليأس اعصابه من فرط الترقب ، والتحديق في الفراغ العريض ، وأصبحت حالته كيفما رأيت اليها ، لا يحسد عليها • وفي كل مرة كان ينوي أن يطرد الأخ ، ويشهر عليه شكه ورفضه ، يعود ويتراجع بفعل عاطفة مبهمة تنبثق في صدره عند اللحظات الأخيرة ، فيتناول علبة التبغ ولا ينبس • حصل في احدى المرات اللاحقة ، وهي حادثة لا قبل له بنسيانها ، أن أحس بعملاق ينهض ملء كيانه ، بينما ابتسامة الاخ تتأرجح على شفتيه ، والقضبان بينهما • رفض التحدث معه باشارات عصبية وأخذت اطرافه ترتعش ، وصدره ينغل بغضب اسطوري • راح يهز القضبان بكل طاقته الآدمية ويصرخ صراخاً محموماً ارتعب له الزائر ، لكن الزائر لم

يعدم الاحساس بالرحمة ، فقذف له بعلبة التبغ ، واستدار راجعاً (تساءل في الطريق : ما يجديه الغضب والنرفزة ، لكنه حدث نفسه بأنه سيفخر به وينفعه ذات يوم) .

شيعه عبدالحميد بنظرات تراوح بين الثقة والاستنكار . ثم عالج علبة التبغ بأظافره . هل هو موقوف أو محكوم ، وبأي تهمة ، وكم مضى عليه من الزمن . لم تكن هناك من مرآة يبصر فيها الوجه الذي له ، باستثناء عيون جماعته الذين يقاسمونه حظه الفاجع . اكثر من شيخ دامع العينين دائم الأنين . صبايا منفوشات الشعر ، مكسورات الاهداب ، وسيقانهن ملتصقة ولا تنفرج . عجائز مسلوبات القدرة على الحركة ، يحصين ليل نهار عدد حبات سبحاتهن المطولة . أطفال بشعر ابيض وعيون لما تومض بعد . كل منكمش بعضه على بعض يحدث افقا مجهولا ، أو يطارد ذكرى لا تطالها الذاكرة ، أو يهرب من كابوس يلح على الوعي ، غير ان المصير الواحد كان يوحد لديهم الاحساس ببؤس المكان . شخير العجائز الذي يضفي على السكون دهشة لا تطاق ، فضلا عن زعيق الاطفال ، وهلوسات الصبايا . في تلك الليلة ، كل ذلك عزّز من أرقه . أصابه أرق ممض ، اذ هرب النعاس من أهدابه ، وتناوبته هواجس قاتمة . ظل يتقلب فوق فراش القش ، ويبدل من أوضاع نومه ، دون ان يتسنى له الاغفاء . وكما يحدث عادة داهمه النعاس في ساعة متأخرة ، فارتد الى المناطق المعتمة من ذاته . رأى الأخ تقوده ابتسامته المجانية ، ويلوح له بعلبة تبغ وببطانية وصحف ، وأكياس تحتوي ما في داخلها . انتفض عبدالحميد كأنه تلقى اهانة فظيعة تتعلق بشرف امه او شقيقته فأخذ يهتف بانفعال صاخب : من دعاك لزيارتي ، من كلفك باخراجي . اريد ان تغرب عن وجهي . لا اريد الا ان اخرج . الآن ، لا اريدك انت ، الآن .

الذين يتهيأون لأداء صلاة الفجر ، نهضوا بهلع . انتهره الشيوخ

بالكلام الحكيم ، فيما استعاذت العجائز بالله من الشياطين والابالیس • ثم ازاح اللحاف عن جسده ، بعدما انحسر النوم عن عينيه • هب واقفا كأنما يلبي أمراً عسكرياً • توجه الى القضبان يهزها بكلتا يديه ويضربها برجليه ، على أمل ان يزحزحها ، ويحدث فجوة يخرج منها الى الخارج المحظور • لكن الكهل السجان ، الذي يرتدي قبعة صغيرة على قياس رأسه ، ويزرع في الزاوية اليمنى لفمه غليوناً قصيراً ، استيقظ على الجلبة فتقدم منه برفقة حارسين ملوحاً بالسوط الطويل ، ولم يعتم ان جلده على ظهره عشر جلدات سريعة متفرقة ، وانذره : اذا عاد لهذا الشعب فسيضاعف من عقابه • (لقد خاف السجان ان يحذو جميع النزلاء حذوه ، فيلجأوا الى اسنانهم الحادة ، أو شد القضبان بجدائل البنات ، أو يصرخوا مجتمعين فيسمع القضاة في الاقاصي) • ولم يكن عبدالحميد ليفهم المفردات التي تتساقط من فم السجان ، انما كان يقرأ في عينيه الضيقتين •

غداة الصباح التالي لم يكن في مقدوره ، ان تتجول عيناه في مدى الصحراء ، كانت اسلاك شائكة اقيمت حول الزنزانة بالغة الارتفاع ، تتخللها ثغرات صغيرة كأنها ثقوب • استشعر مرارة في فمه ، واحس بصداع يضرب جدران رأسه من جميع الجهات • لم يستطع ان يتذكر بصفاء ، لكنه لم يملك الا الذهول عندما رأى الى الصدأ ، تغمر اصابعه • فنظر بطرف عينه الى القضبان ، واطلق تنهيدة عميقة • تذكر الأخ والمتفرجين ، والسجان ، وما فعله الليلة الماضية •

تناول الابريق الدبق المخصص له ، ثم جعله في وضع عمودي كي يستل آخر القطران منه ، ولم يكن يحتوي ، ما يكفي لأكثر من ترطيب اللسان وسقف اللسان ونشاق الحنجرة • تحسس ظهره بباطن يده الخشنة ـ رغم انه ابن عشرين • فاكتشف اخدودا جديدا قد انحفر في اسفل الظهر ، تعلوه طبقة قشرية سميكة ، قشط طرفاً منها وكان لونها

أسود • خلفت اثرها وجعا حارقا ، لم يكن بجديد عليه ، لكنه عندما عاد وحدق في السور الشائك حول الزنزانة ، احس ان ظهره يكاد يقصم ، اخدود جديد في الظهر ، لا يلتئم الا اذا استقام الظهر • ومناسبة جديدة لزيارة المتفرجين ، وللأخ كي يعرض عواطفه الغزيرة • الأخ الذي كان السبب •

لم تكن لديه ذلك الصباح ، قابلية للطعام والاشياء الاخرى التي تساعد على الاستمرار في العيش ، بيد ان السجان في العاشرة ، جاء كعادته بالطعام • ثم طلب منهم قبل ان يأكلوا ، كي يأكلوا ، توقيع عريضة يتنازلون فيها عن حقهم في الخروج ، ومكافأة لهم يتم نقلهم من باب الشعور والمحنة الى زنزانة أخرى مكيفة الهواء وبشروط صحية مثلى ، مع مفاجآت أخرى •

كان عبدالحميد قبل عرض السجان مصمماً على العزوف عن الطعام ، ولم يكن يفكر انه بعد سماعه سينقض على القضبان بأسنانه الكاملة ، ويجعل ذراعيه في وضع التفاف عليها •

ـ هل انتم كلاب • جثث تعيش • لا تدمنوا على الذل •

لم تكن لديهم الشجاعة حتى يرفضوا ، فبصم الشيوخ كل بأصابعه العشر ، عنهم وعن العجائز والصبايا ، وعن الاطفال الذين سيكبرون • وتناولوا الطعام ، لكن السجان تناول عبدالحميد من عنقه ، وكفأه على بطنه ، وأخذ يجلده بالسوط الطويل ، كأنما مدفوع بحق شخصي تاريخي (يبدو أنه يعتبره حقداً قانونياً وشرعياً) حتى تلوث الاسود بالاحمر ، وتعب أصل ذراع السجان • بل ظهر عليه الانهاك من رفس عبدالحميد له • قال له الشيوخ في غمرة تأثرهم ، وبأصوات واطئة متخثرة : « من قال لك ان تفعل هذا • نحن نعرفه من زمان ، من أيام الانبياء • ليس في قلبه

رحمة • ونتقي شره • ليس لنا في الدنيا غير هذا المكان ، مكتوب علينا • اقتنع بهذا الوهم » • ليس عاديا ذاك اليوم • كذلك ابتسامة الاخ ، جاءه في ابتسامة اعرض من عادية (لمحه عبدالحميد من خلف السور الشائك ، كان ثمة شرخ في جبهته • قيل انه بسببه ••) سمع صوته المحزون :

– لقد سببت لي كثيرا من المتاعب (وهو يتحسس جبهته) هل ترى هذا • ليس ظهرك فقط ، هل ترى هذا •

وبعدها لم يأت ، لأنه لم يعد ينتظره • أحس بتعاطف معه عندما رأى الشرخ ، ولكنه تأكد له مع نفسه انه كان صغيرا جدا ، عندما كان ينتظر يوم الخروج على يديه ، وهو راكد في الصمت • وهو حتى الآن لا يؤرقه يوم الخروج بقدر ما تؤرقه تلك الاسئلة القديمة : هل هو موقوف ، أو محكوم بأية تهمة ، وأي زمن مضى عليه ؟ • تطوقه الأسئلة ويكاد يختنق ، ولا يجد له متنفساً ، سوى ان يقف بقامته الطويلة ، ويتوجه الى القضبان عبر نظرات الاشفاق والسخرية ، يهزهـا بجماع طاقتـه ، على امل ان يزحزحها ويحدث فجوة يخرج منها ، رغم حصار السور الى العـراء المفتـوح •

فلسطين

وصلني من الشيخ العريق ان الكلام لا يبلغ الجسد • فمن منكم في هذه الاثناء ، نظأ جسد حبيته بالكلام المباح ؟ •

الوقت في العشية ، بعد العشاء ، في مخيمنا • كان الشيخ استراحتنا ، وتستريح معنا سلاحاتنا المثلومة الباقية • وواحدنا يفتش له في ليل الخطأ ، عن خيط ضوء وحق •

١ ـ بعتنا : فارس ، أبو الطيب ، جهاد ، طارق (أنا) • كنا نتحلق حول الشاي الدافىء • لم يشاركنا في الحديث الام ا ندر • ومن أول ما جلسنا وهو يجهد في الاقتراب ولا يفلح • وجالد نفسه مرة أو مرتين ، وشاركنا • لا اذكر قوله ، بل اعرف انه جعلني مشدودا اليه • كنت بينهم صاحب الرغبة في الاصغاء اليه • على انه توقف • ومع اني كنت اتوقع ان يعاود الحديث ، الا انه لم يفعل • جعل يتسمع لوقع المطر ، اذ كانت حوالي البيت الصغير تمطر بانتظام ، انما بغزارة ، بعد أن كف نشيج الرصاص •

اذن ، لقد انكسر بين الشيخ واربعتنا ، أمر • بادىء الامر ، لم اعرف كيف تولاه اختناق وكظم ، واستحال الكلام في الفم •• رمادا • وعندما لحظت ذلك ، لحظت أيضا أن أياً منا في الحضرة ـ وهو ينسب الى

فرقته ـ يستعمل رأسه بحرص كبير ، حتى عندما لا يكون الكلام محسوبا • وطالما ارتج الشيخ ، اذ لا تملك يمينه تهدئة لنا •

ثم لفتني اليه شيخ مخيمنا ، الذي ما لبث ان انصرف عن الحلقة ، وأقعى بعيـــدا في زاويته • وحيـــدا ، لوحده • صار الشيخ طاعناً في مشاعر ، وها غيمة حزن دامية ، عينيه ، ودمعـة محرورة معلقة تمنعهـا الكبرياء • يا الهي • اين كان الرجل وهو بيننا • هل نكون جدفنا عليه ، ونحن تواضعنا على الكفاح الذي أثاره في شبابه ؟ •

لم يعد يسمعنا • يستأنف فارس الكلام بلهجته السورية ، فيقابله أبو الطيب ، ويهرول جهاد من جهته • كل منا يتسلل الى سره • كم أدرنا ظهورنا لبعضنا • وكم تواريا وتوارينا ، •• وكم ربما تلاقينا مرات ، في حضرة شيخنا •

صرت ـ خارج الدائرة ـ أسترق اليه النظر • أطفال المخيم يتدفأون بأحلامهم وأمهاتهم (واي ذاكرة يحملونها معهم الى زمانهم ؟) •

صارت أصابعه المعروقة الناحلة ، تعبث بالعشب يعلو فمه • هل يكون له هسيس •• وأنا من يأخذني ويرميني في الشيخ الطفل ؟ •

(وأنا في الصغر ، لم تبتدىء طفولتي • كانت بلادي هائمة مسيبة ، وتخومها ما بعد الاراضي • لا انسى ذلك ، ولا اذكر مكاناً قويا) •

لم التفت عندما نهرني فارس عن صمتي • ظل الاصدقاء الشجعان ، يتوفقون • لكن من في هذا الوقت الشديد : يلمس البحر السادر بهوله الازرق ، بقبض النراب بجماع اليد والقلب ، يصل الهواء الطائر المقصوف هنـاك ؟ •

وأقيت انتباهي على اصدقائي : وقع ابو الطيب في جراحه • وقف فارس على شجاعته • ويسأل جهاد وهو معنى عن الاعداء ـ وكانت القبيلة

خذلتنا ، ورأت في اولادها الاعداء •

اما طارق (أنا) فأعرب بعد تردد عن الفقدان ، وان ظل على كل ايمانه • وغرغرنا جميعاً بالابتسام والاحزان والمصير المشترك •

وشاء الاصدقاء بعض الصمت • لم يكن الشيخ قد غفا • ثمة يقظة مريرة ، تبطل نعاسه • قلنا ندعوه الينا قبل ان نتفرق • يجيء الينا أو نحن نذهب •

ـ « غضبت منا يا والدي •• مني ؟ » •

قال ابو الطيب بلهجته الاردنية • فرفع الشيخ الكبير ساعده ببطء ، عن الثوب على حضنه ، ومسح على عينيه •• وحار هنيهة اين تستقر الكف ، ثم حك زاوية رأسه باعياء ، وأطلق تنهيدة حرى : « الله •• » •

ـ « ابدا • انتم كما يقولون في الكتب ، ملحها • لكن ليس بيدي » •

رسم بيده صلاة ، قبل ان يوافي •

ـ « ليس بيدي العيش هنا ، ولا الموت هناك • اتعرفون ؟ » •

ومرة أخرى أطلق « الله •• » ، وهو مطرق خواطر الرأس •

ـ « انتم شباب ، نوار ، وفهمتم من القراءة • أما انا ؟ •• » •

ورأيته ، كأنما يزجر الخارطة القديمة ، التي صلبوها في البيت ، من خلل غبش دموعه •

بات خجلا منا ، ودموعه تذرذر •

(انه في « الذاكرة الثالثة » المشبوبة) • فهمت •

عندها كدت افقد ذاكرتي • فاعتنقت سلاحي المثلوم الباقي ، بقوة • وانا اريد اريد ان اعثر على جسدي •

فقال جهاد مستأنفا كلام الليلة ، بلهجته اللبنانية •

ـ « يجب ان نحاكم التاريخ الذي صنعه آباؤنا من قبل ، بصرامة •

كاد الحديث عن خصوصية قضيتنا ينسينا القوانين ، التي تنظم ثورات العالم المتخلف ، .

لكن الاصدقاء غمغموا متأهبين للخروج . أما الشيخ الاب ، فهو في هذا الوقت يقطر غيظاً وحناناً . دعانا للبقاء ، فاستأذن كل منا ، وحيّا .

ـ « يجدر ان تنام في هذا الوقت المتأخر ، والبرد ..» .

قلت له بعد ان رأيت في عينيه ، دعوة خاصة لي . فمنعني من ان اغادر . اقترب مني . مدّ يده الجافة الراعشة وهو يتمتم . تحسس وجهي وصدري بحنو واعتذار .

وقلت في نفسي « لأفتح له باب الكلام » . ففتحه :

ـ « انكم تسبقونني . فما الذي يقوله العجوز في بيته ؟ »

ـ « رأيت ماءها ونساءها وقبورها في صورتكم » .

ـ « ذهبت اليها وحدي ، كما تذهبون اليها كل يوم وحدكم » .

ـ « لم تعد لي . صارت لكم ، وصرتم لي » .

التصق بي وهو ينتحب . اخذ يتدفأ بي ويحيطني . ولما خرجت انشأت اركض حاضنا سلاحي ، صوب طفولتي القادمة .

اللؤلؤة

« عندما خرج الرجل من البحر ، اكتشف ان خاتمه العزيز فقد الوهج • كانت اللؤلؤة قد سقطت في الماء ، فانتشرت في أعماقه الكآبة • ولم يتردد الرجل ، في النزول الى البحر ، ليفتش تحت الموج ، عن نقطة الضوء • فاصطدم بالعتم والصخور ، وخرج بخيبة مريرة •

ومن يومها ، أصبح الرجل يمقت كل بحار الدنيا ، التي تسلب الانسان مسراته • (وتمر الايام) •

ثم مرت الايام ، وسافر الرجل الى بلد بعيد • وفيما كان يتمشى في أحد الشوارع ، شعر بالجوع ، فدلف الى المطعم القريب • فأحضر له الخادم طبقاً من السمك الاشقر ، ولم يكن الرجل ينفر من السمك أو يرغب فيه • وبينما هو يلتهم السمكة ، ببطء وحذر ، خشية من العظام الدقيقة الناتئة ، فاذا بجسم صلد ، يصطك تحت أسنانه •

(الرجل يقول : اني من الصباح ، أحس بترحاب عظيم ازاء كل الاشياء ، وأستشعر غبطة خفية ، وثمة حماس غامض يملؤني) •

وبلهفة دس اصبعيه بين الاسنان ، وسحب بخفة ذلك الجسم الغريب، فاذا عظمة دقيقة ناتئة » •

الحب يؤدي الى الموت

رآها فأحبها فورا • ولم يكن يملك الجسارة ليصرح لها بذلك ، فاتصل بها ، ونقل اليها عواطفه والرغبة في التعرف ، فأقفلت السماعة • ثم كتب لها انه يحبها بكل أعماقه ، فلم تجبه بكلمة • ثم طاردها في الشارع ، والشوارع ، فلم تلتفت • ثم كتب انه يغفر لها تجاهلها ، اياه فلم تجبه بكلمة • ثم سافرت ، فكتب انه لم يقلع عن حبها ، وانه يحبها لا زال ، ٢٤ ساعة في اليوم ، فلم تجبه بكلمة ، ثم كتب لزوجها انه يحب امرأته حبا شديدا ، فلم يتلق ردا • ثم رجعت الى البلاد ، بعد طلاقها ، فكتب يعرض لها حبه الباقي ، فلم تجبه بكلمة • ثم كتب انه مستعد للموت، ليثبت لها الحب ، فلم تجبه بكلمة • ثم كتب ان حبه قاتل ، فلم تجبه بكلمة • ثم فكر في القتل • وسريعا ما طرد الفكرة ، ما دام لا يجرؤ أن يسحق صرصارا • وعند ذلك قرر أن يقتل نفسه • فكتب : انها اذا لم تجبه هذه المرة فانه ينتحر ، فلم تجبه بكلمة • فانتحر • ولم تعلم •

الشوق الى الأرض الطيبة

نزع أبو العبد كوفيته وعقاله عن رأسه الأشيب ، وألقى بهما بجانبه على البطانية المتسخة .

أطلق تنهيدة عميقة ، فقد كان الحر لا يطاق وليس يجرؤ على خلع ثياب الوكالة عن جسده النحيل ، لان الخيمة تفتقر الى باب ، وقبالتهم بنات وحريم . فك أزرار حذائه الضخم وطوح به الى الزاوية ، ثم مدد رجليه باعياء بالغ ، ووضع تحت رأسه معطفا عتيقا كوّمه كيفما اتفق ، واعتمد على راحة يده المتشققة الجافة ، في محاولة لا غنى عنها للراحة من تعب الساعات العشر التي أنفقها في أعمال البناء في الجبل المجاور .

أم العبد كانت عند جيرانهم في الخيمة المحاذية ، تتحدث مع جارانها عن انقطاع الماء الدائم ، والاوس المغشوش ، والعمر الذي مضى منه أكثر مما بقي .

ابنته خديجة ـ قليلة الحظ ـ تتعلم في شغل الخياطة . أما حسن ، الشاب اليافع ابن العشرين عاما فقد كان وقتها يشرب الشاي ويدخن ، وينتصر وينهزم في لعبة الورق ، وأخيرا تعلم شتم الناس بدون سبب .

« هذا وقد يكون في مكان آخر ، من يدري .. » . تأوه أبو العبد ومسح قطرة عرق كانت تتأرجح على أرنبة أنفه . تناهت الى أذنيه الحافلتين بالشعر الكثيف أغنية عن القدس ، من مذياع يبدو ان بطارياته جديدة ، ولم يستطع عندها أن يتعرف على حقيقة مشاعره ، فانقلب الى الخاصرة

الاخرى ، وأحس بوجع كالمطرقة يضرب جـــدران رأسه وقال لنفسه : يلعنها من حياة • وشعر بالنعاس يتسلل الى عينيه ، ولم يكن هناك ما يدعو للمقاومة فاستسلم له بكليته • انه منذ نزح من مخيم النويعمة الذي مكث فيه عشرين عاما طويلة ، أنجب في أوائلها حسن ، وبنى دارا من ثلاث غرف في باحتها دالية وشجرة حور • من يومهـــا وهو يحن دائما الى النوم ، وقد قال له بعض العارفين في حلقته المسائية ، ان هذا مرض خبيث لا يحسد عليه ، وبعضهم صارحه انه يؤدي الى النوم الاخير • لكن على ماذا يكترث أبو العبد ؟•

رويدا رويدا كان وعيه ينحسر ازاء مد النعاس الذي يجتاح أهدابه، فيما كان هواء لافح مغبر يعبث بأشياء خيمته ، ويغمر وجهه المكدود بعرق دبق غزير • جلبة الاولاد في الخارج يسمعها كالطنين • الهواء الذي يمر على وجهه يجعله يتخيل انه يمضي في رحلة مضنية لا تنتهي ، في حالـــة سفر دون وصول • راحة يده تحت رأسه أصبحت مبتلة ، سحبها ، وكان المعطف خشنا ، كثيف الوبر كما لو انه ينام على شوك ، وحيدا في أرض مجهولة مقطوعة الاسباب بالعالم • الجبنة والتبغ لم يتركا في فمه ماء ليبتلع ريقه • نهض بتكاسل كي يبحث عن ابريق الماء ، ويشرب • تطلع حواليه برجاء وخشى ألا يعثر عليه ، وأخيرا وجده عند مدخل الخيمة • كان الماء ساخنا وفي القعر • جعل الابريق في وضع عمودي على فمه ، وامتص بنهم القطرات البخيلة ، اصطكت بأسنانه حصوة صـــغيرة عرقلت استمتاعه ، بصقها ثم بصق مرة أخرى بصقة مستقلة ، بيد ان طعم التراب ظـــل في فمه • عاد ليرتمي مرة أخرى على البطانية وكأنه يود أن يهرب من أمر مجهول يتربصه • عزم أن ينام نوما طويلا ، حتى لو أدى ذلك الى نومه الاخير ، لكن التعب الذي يسري في رجليه ، كان يعاكس رغبته • أخذ يجعل رجليه في أكثر من وضع كي يبدد التعب ، ولم يفلح في ذلك حتى

ضاق صدره وضجر • تأكد ان جهوده لا تثمر وسيظل معلقا هكذا بين أرض اليقظة وسماء النوم ، فاكتأب ، وخشي أن يكون ذلك بداية لمرض ما يحرمه من نصف الدينار الذي يتقاضاه من صاحب البناية في الجبل المجاور • لعن ابنه حسن الشاب الفالت الذي لا يبحث عن عمل ، ويظل يتغيب عنهم • أما مصطفى الذي يشتغل في الكويت من خمس سنوات ، فانه لا يلتفت اليهم الا في العيدين ، يبعث ورقة خضراء يستلمها حسن ويتصرف بها على مزاجه • ثم يقول اللعين انه سيتزوج وخديجة لم تستر بعد •

خارج خيمته يبدو ان الشمس توشك على اتمام رحلتها اليومية ، دون أن تتيسر له ساعة أو ساعتان من الاغفاء • كان ذهنه متعبا ومختلطا من فرط التفكير والتذكير ، وقد وصل الان ذروة الاشتباك فلم يعد يفكر بشيء أو تخطر على ذهنه ذكرى • هش لهذه الحالة ، فغالبا ما تكون توطئة للتوغل في غابة النوم والنسيان •

لم تمض لحظات حتى راح أبو العبد ومعه فصول عمره الحزينة في نوم عميق ، من أوضح مظاهره شخيره الحاد المتقطع كصوت حيوان غب الذبح ، بينما كانت ذبابة مشاغبة ، كبيرة الحجم وملحاحة ، تتنقل على معالم وجهه فتجعل منظره لمن يتفرس فيه غير صحي أبدا •

الطريق من مخيم النويعمة الى الضفة الشرقية للنهر طويلة وشائكة • وعندما تسلكها اسرة كاملة ، في منتصف الصيف ، مشيا ، تبدو العملية أشد عناء ومشقة ، واحتمال الموت قائم أكثر من الحياة • لكنه ، في الواقع قطعها • فقد كان هناك ما يدفعهم ، من الخلف بالذات ، الى الخروج • أم العبد أغاظته في الطريق ، تريد أن ترتاح ساعة كل نصف ساعة ، بينما المسافة بعيدة ، والطائرات لا ترحم ، والذهول يجرد الاعصاب ويستفزها •

أريحا وراءهم تغوص في طوفان من الدخان ، وقلبه يفيض وأنفاسه تكاد تتقطع : يا الله ما أقساها من دنيا ، ما ألعنه من وقت ، كيف يحدث

ذلك ؟. أم العبد تجرجر الخمسين عاما ، وأكثر من تساؤل استنكاري مبهم يطل من عينيها . حسن كان نشيطا متوترا ، وقد تردد كثيرا في أن يسأل والده : لماذا لا نبقى مثل غيرنا الذين بقوا ؟ خديجة خائفة ، والبطانيات على ظهرها ثقيلة . قالت لأمها انها نسيت الراديو مفتوحا ، فألجمتها بنظرة غضب . وعادت تسأل : هل خرج دار أبو حليمة ؟ غير ان ثقل البطانيات أرغمها على الانتباه . أبو العبد رغم انه كان غير مصدق لما يحدث ، لكنه بدا وهو يغذ سيره كما لو انه كان يتوقع ذلك .

الجنود من حولهم ينسربون بانفعال ولهف . بعضهم يتجه الى النهر ، والبعض الآخر يقصد الاتجاه الشرقي . في الحرب تبدو الحياة والموت جد مختلفين ، بجسم ، وقد يختلطان . المعركة لم تكن انتهت ، واحتمال الموت والحياة لم يزل مثارا ، وله مذاق مميز في الفم .

أبو العبد كان يخشى أن تنفرط الأسرة . أن يفقد مثلا آخر العنقود حسن . أو تلك الحزينة خديجة . أو رفيقته التي أحبها ذات يوم في بيت دجن . في ال ٤٨ أجهزت رصاصة على شباب بكره العبد ، وكم مضى من العمر وهو يتحسر ، وكم عذبته الكوابيس ، وطاردته الهواجس .

عند مشارف صويلح أقلتهم سيارة تراكتور ، فقد كان حظه كبيرا لان سائقها كان جارا لهم في المخيم . عندما صعد الى الناقلة الخلفية كاد يتعثر لما اشتبك سرواله بحافة الباب ، وجاءته خاطرة مريرة آذ تذكر الغجر الذين لا يقيمون فانتابه تعاطف غريزي معهم ، وخشي كثيرا أن يلتقي مصيره بمصيرهم آخر الأمر ، فأشرقت عيونه بدموع سخينة ، غالب نفسه وهو يخفيها عن عيون حسن . كان جسده يتمايل من أثر السرعة والزحام وعدم الارتكاز ، والسقوط والنهوض يتناوبانه .

ظلت نظرته مرشوقة الى الغرب ، وسيارة التراكتور تنأى به بعيدا ، وتنهب المسافات . كان وجدانه يقطر حقدا مفجوعا على الذين يخلعون

الاشجار • أطلت جبال عمان ، وأخذ يتخيل كيف تكون لقياه بأقاربه ، فأحس بالخجل والحسرة • عندما توقفت السيارة هبط الشارع وهو يتفسخ من الارهاق • افترش أقرب رصيف ، ومنحه ظل بناية شاهقة راحة كبيرة ، ممزوجة بالتشوق لشيء غامض ، وكان اليأس يهيء له انه لن يلتقيه • فلا أحد يخبر دقائق الايام السود مثل أبو العبد ، ولا أحد يدري بفعل رياح الخماسين مثل أبو العبد ، وكيف جعلته في نهاية المطاف لايملك غير خيمة زرقاء ضيقة ، تذكر بالتشرد والحياة المؤقتة •

– حسن لم يأت حتى الآن

– لا بد أن يجيء

– قد يكون ذهب الى السينما ، أو يتسكع

– لكنه صمم أن يأتي ، كان أكثرنا اصرارا

– قد يكون في الخيمة الزرقاء « السياحية » •

– ذهبت اليه بنفسي ، هناك والده العجوز ينام عميقا •

– •• الغائب عذره معه

– قد يكون في حاجة الينا

– لكن ربما أضاع الطريق

– لا أحد يعرف الطريق مثل حسن

– مضى نصف ساعة ، أشعر بقلق عليه

– يا الهي متى يجيء ، أين يكون ؟

– كل شيء محتمل الحدوث ، من يدري !

– أنا أقول ، ربما ينتظرنا هو الآن

– « لا بد ان حسن » ••

– « حلمت ان حسن » ••

حتى أدركوا انهم يهدرون الوقت بلا جدوى • اتفقوا بدون مقدمات

على ان الوقت ضيق ولا يتسع للثرثرة • انفض ثلاثتهم وكأنهم ينفذون قرارا مسبقا ، وفي ذهن كل منهم فكرة تنتسب للغموض والوضوح معا • فكرة تشف كالحلم وتضيء • التقت عيونهم للحظة كثيفة وكانت لغة العيون تعرب عن اتفاقهم • تفرقوا ويملؤهم الشعور بأن وعدا ما ينتظرهم كي يلتقوا • استيقظ أبو العبد ، وكأنه صدر من قاع بئر معتم ، والعتمة أيضا كانت تحتوي حيز الخيمة الضيق ، وتمنع أصابعه المعروقة من التسلل الى علبة التبغ • راعه أن تكون الخيمة مقفرة ولا أحد ، والصمت بهذا الشمول فأدرك ان ثمة أمرا يحدث • نهض بتثاقل • أخذ يبحث بأمل ضئيل عن المصباح فاصطدم بتنكة الكاز ، فسقط على الترابية اليابسة • حدس من جديد ان في الأمر شيئا لا يبعث على الارتياح منذ خرج في الصباح الى شغله وهو يستشعر مرارة في فمه ، وانه مكدر وغير طبيعي • أين أم العبد ، ألم تشبع من الكلام ؟• وخديجة ما الذي جعلها تتأخر الى هذا الوقت ، لا بد أنها تلازم أمها • أما حسن فمن يقدر أن يضبطه • لم يحصل أن تركوه وحيدا فماذا في الأمر ؟• أطل من أعماقه حزن ملثم غامض الجذور ، فاستيقظت في خاطره توقعات سوداء • نهض كي يخرج ويسأل الجيران • انتابته الدهشة ، عندما رأى المخيم هادئا نائما ، فأيقن ان الوقت متأخر ، وازدادت مخاوفه •

ـ أبو يوسف •• يا أبو يوسف •

نهض هذا من فراشه منزعجا • تبادلا باقتضاب تحية المساء ، ثم قال أبو يوسف ••

ـ لماذا حرمتنا منك هذه الليلة ؟•

ـ لكن يا حاج ، أم العبد وخديجة ، أين ؟

ـ آه • صحيح • رأيتهما تبحثان عن حسن • قيل انه ، أنا لم أره ، انه كان يتمشى في المخيم بلباس شبابنا ، وسلاحه على كتفه ، ثم نزل الى

البلد . لا أم العبد ولا خديجة ، صدقت هذا ، كل واحدة أصرت على انه أصابه لا سمح الله مكروه ، لماذا تستغرب يا أبو العبد ، ابني معهم كما تعرف معهم ؟. لكن أبو العبد بدا وكأنه استغرب . تذكر للتو ابنه العبد الذي أجهزت رصاصة على شبابه ، وكم مضى من العمر يتحسر عليه . انتابه اليه شوق حارق ، فاذا بمعالم بيت دجن تلوح له وكأنه في حضرة حلم . أرضه الطيبة في بيت دجن البعيدة . وكاد يبكي الرجل ، لكنه انسحب الى خيمته . لم يتضايق هذه المرة من سطوة الظلام ، فقد كان منقطعا عن المكان ، يحدق في ذاكرته . لم يفطن أن يسأل « كم الساعة الآن » . غير انه كان متأكدا انه أطال في النوم ، وان ساعة الصباح قريبة .

العانس لا تفكر كالآخرين

استلمت راتبها القليل ، فذهبت المرأة العانس الى السينما • كانت تلبس الثوب القصير • جلس الى جانبها رجل ، في الاربعين • وضعت المحفظة بين الساقين • (عتمة) • تسللت أصابع الرجل • كانت أصابعه دافئة ، ولحمها يستجيب حتى المدى • استسلمت المرأة بفائق السعادة ، ولم يكن الفيلم يعني شيئا ولن يعني شيئا • لكنها كانت شديدة الخجل ، فلم تر الى وجهه ، وتمنت في سرها ، لو يكون العالم ، هكذا : فلم سينما • ثم جاءت لحظة وشعرت فيها بالانحدار ، وقد ارتدت الى عالمها الأوحد • كان الرجل قد توقف عن ذلك ، فرأت بيتهم الفقير ، والاب العجوز ، والصبية البائسين •

حين أضاءت الصالة ، وكان المقعدان بجانبها فارغين ، لم يكن ثمة محفظة • وعندما قالت للشرطي : انها كانت تطبق عليها ، استغرب منها • كادت تفسّر له « حسبت أنه » لكن الكلمات امتنعت في حلقها •

لعبة اليقظة والنوم

أنا رجل بلا شواغل • أجوب الطرقات ، وأتمطى في المقاهي ، وأحلم بغزارة • قامتي طويلة كالقصبة ، وملامح وجهي سمراء مكدودة ، بيتنا على الطبقة الثانية ، وابنة الجيران مخطوبة لابن عمها ، قبل أن أنام أمكث ساعتين أحدق في السقف ، وأحيانا أنام مفتوح العينين • لكن عندما أنام ، أحس كما لو اني منذور لبئر لا قرار لها • وعند ظهيرة اليوم التالى أدرك ان القرار بعيد ، ومسكون بالهواجس الغامضة • لا علاج لوجع رأسي ، من فرط بحثي عن أمر يتعامل معه رأسي ، بالتفكير لذلك دائما رأسي يتدلى لانه ثقيل من الورم •

لا أضع برنامجا لأيامي ، ذلك انها تقوم بتلقائها بهذه المهمة • وهذا يقودني الى سيرة العمل ، العمل بحثت عنه عشرين مرة • طرقت عشرين بابا ونافذة ، فلم يأت ، لن يأتي قبل « غودو » • وعلى هذا أنا رجل محشو بالخيبة ،وعيوني مبصومة بحزن قديم •

لا أفلح في التذكار • ذاكرتي حافلة بالثقوب ، كمنديلى • أنسى انني لم أتناول طعام الفطور • أنسى الماء في فمي دون أن أشربه • يحصل أن أنسى لمن الوجه الذي أراه في المرآة • لكن ذلك كله لا قيمة له بجانب ذلك الحدث • نسيت أن أفتح باب قلبي ، فاجتاحه الصدأ •

مرة استغرقتني الرغبة في علاقة ، تخليت عن الرصانة ، ذلك ان وجهها رائق وطافح بالحنان •

- آنستي كم يكلف أن أحبك ؟.

بعد أقل من لحظة ، أدركت ان البصاق قد أصبح لغة حية . وسرعان ما فهمت فتدلى رأسي أكثر ، واحمرت أذناي ، فدلفت الى أقرب مقهى ، والتهمت علبة سجائر دفعة واحدة . فاذا به يهز رأسي قائلا :

- صدقني أنا لا اؤمن بالحب .

وكنت واثقا انه يؤمن بالشاي الثقيل ، فجلس يثرثر قربي متلذلذا .

- الليلة الماضية لم أنم وحدي ، دفا عفا . ألا تصدق ؟ اذن هات سيجارة . تذهب الى السينما ؟. سأتعشى هذا المساء دجاجا ، وبذلتي الجديدة ستعجبك . تكلم يا سيدي نصف الألف خمسمئة .

وخرج ، وبعد دقائق خرجت .

وبعد يومين رأيتها مرة أخرى ، غير ان وجهها هذه المرة ذكرني بساعات ما قبل النوم . طاردت قدميها ، وسمعتها بأذني اليمنى تقول لأحدهم ..

- أنت مجنون ، النافذة كانت مفتوحة .

فتحسس شاربيه بزهو ، ولعق شفتيه ، وابتلعتهما بناية أطول من رواية « البؤساء » .

عدت الى البيت وأنا أتساقط من الهزيمة . تناولت طعاما دسما على غير عادتي (يلذ لي أن أكسر العادة ..) ، ونمت دون جهد ، فقد كان التعب صخرة تستريح على جفوني . رأيتها تخطر بقامتها الملساء ، لكن المكان كان حديقة عامة ، والوقت قبل أن يبزغ القمر بنصف ساعة . بادرتني بالتحية ، وقالت انها تود أن تعتذر ، وانها تحبني بسخاء ، وترغب أن تتمشى معا ، زغرد قلبي لهذه المفاجأة ، فخرجت معها من الحديقة ، واحساس بالنصر يتوجني ، طوقتها بذراعي وحدثتها عن مشاريع المستقبل ،

وهي تغمغم بانتشاء • وأخبرتها انني أشتهيها • فعانقتها بالتحام حتى شعرت بهوة تفصلني عنها • حركت ذراعي ، لكنه كان يشق الفراغ عبثا • فحضر شرطي وقادني من أنفي الى المخفر بتهمة التبول في مكان محظور • وبقيت في السجن حتى سألتني أمي ان كان حان ميعاد صلاة الظهر أم لا • لكن ساعتي كانت متوقفة عن النبض ، وتشير عقاربها المتيبسة الى الثالثة عشرة •

وبعد ذلك لم أرها قط ، وان كان يروق لي ذلك • فأنا رجل بلا شواغل أبحث عن وسيلة أتخلص بها من عادة القراءة • جربت أكثر من وسيلة ، كالقراءة على الريق ، وبيع جميع الكتب والمجلات عندي ففشلت، والفشل يجرح كبريائي ، فعندما فشلت في الدراسة العليا ، كان أبي ضيق الصدر ، عصبي المزاج ، فحاول أن يؤنبني كأني طفل أعطب دميته •

ـ هذا هو قدر استطاعتي •

فأجابني بشفتيه ويديه وعينيه :

ـ اخرس •

أحسست بطعنة قاسية تخترق قلبي ، فقلت بتوجع وغضب ••

ـ طيب ، لن تروني بعد هذا اليوم •

أما أبي فقد هز رأسه بلا مبالاة •

ـ روح اشرب البحر •

ولضيق صدري بالفشل والمهانة ، صممت على فعل ذلك • حملت دلو الماء ، وذهبت الى أقرب بحر من بيتنا ، ورحت أشرب ، وأشرب ، حتى اضطر أبي أن يتأبط أكياس الفواكه ويزورني على السرير الابيض•

وبعد ذلك بيوم واحد ، رأيت واحدة تشبهها ، غير ان كعب حذائها كان أطول • كنت أريد أن أقول لها ان وجهها يذكرني بوجه أليف ، واني على استعداد لاستقبالها في أحد أحلامي المقبلة ، لكني عندما رفعت

وجهي اليها ، وحدقت في تضاريس وجهها بامعان • قالت وهي تنظر الى حذائي المثقوب من مقدمته ••

ـ لا تتعب نفسك ، بيتنا ليس كبيت أمك !•

ابتلعت ريقي بصعوبة ، وتصورت بحسرة بيتهم ، مشـــادا بالحجر الابيض الناصع ، تضيء حجراته مصابيح ملونة ، وتحضنه حديقة فائقة العبق ، يحرسها رجل أسود مفتول العضلات ، طيب النيات •

تقهقرت حتى وصلت الى البيت ، أعلمتني أمي أن بيتنا مهدد بحجز أثاثه ، اذا لم ندفع الديون المستحقة علينا ، فانتحبت في داخلي وصممت أن أبحث عن عمل في اليوم التالي •

أظل أقول لكم أنا عاطل عن العمل • أدمنت التطواف في الطرقات ، وتدخين السجائر مع الشاي ، ماذا أفعل في البيت ، اذا كان جهاز الراديو يقاطع محطات العالم كلها ، وكتبي تسكعت في أرجائها أكثر من مرتين ، وابنة الجيران مخطوبة لابن عمها ؟!

وعندما التقيته في المقهى الذي افتتح أبوابه حديثا ، قال لي ان لعبة الزهر أمتع من لعبـــة الورق ، ونصحني أن لا أكثر من السهر ، حتى تتحسن صحتي • وان الضحك لا الاكتئاب مفيد للصحة •

منذ انفصلت عن طفولتي لم أضحك مرة واحدة • لم أشرق مرة واحدة ، فأنا رجل بلا موقع ولا اتجاهات • خارج خارطة الدنيا ، وخارج المدينة التي تحدب على أبنائها • عندما تركني أوصـــاني أن أزوره في الدائرة ، لكي تتوثق بيننا عرى الانسجام ، وسدد الحساب •

أحاسب نفسي دائما ، لماذا جسدي نحيل ، وياقة قميصي تظـــل متسخة ، ولا أتردد على أقاربي ؟• وتظل هذه التساؤلات تضرب جدران رأسي بعنف • وأبدأ بحماس أبحث عن أجوبة مقنعة ، لكن لا يلبث أن يبرز من خلف ذاكرتي المثقوبة سؤال يحاصرني كسور الصين الـكبير

(لماذا يولد أطفال الفقراء بشعين ؟) • وأحس كما لو ان السؤال مصوب الي بدقة ، فأرفع يدي وأتحسس جبهتي فأكتشف انهـا مطلية بالغبار ، وأنفي لا يكف عن تقدمه الى الامام •

ويجرفني اليأس • أنا متخم بالحقد لان حياتي سرد بليد ، وتطلعاتي الصغيرة تظل بين قوسين • وأنسحب الى تراثي •

ـ كنت سمينا كالبطة ، وأنت الآن هزيل كالعصا •

ـ لا يهم • عندما احصل على عمل، لن يستطيع السرير أن يحملني•

تمطرني بنظرات الغضب والرثاء ، وتجلس خلف ماكينة الخياطة كالسائق • فأدفن وجهي براحتي الاثنتين ، وأبكي بكاءا محموما بلا دموع•

هذا يحدث لي كثيرا ، وأمي لا تخفي رغبتها بخروجي من البيت •

ولقد قررت ذات يوم كانت الشمس فيه مكسوفة ، أن أرحل عن البيت الى الأبد •

حزمت حقيبة قماشية ، وانزلقت الى المدينة ، وبعـد ساعتين فقط تشنجت من الجوع وكانت المطاعم مقفلة ، والقطط تنبش بقايا الأطعمة ، أما أعضائي فلم تكن تحتمل رطوبة السجن • ركضت عائدا وتوسدت كتف أمي •

أنفقت تلك الليلة ، وأنا أحصي عدد البقع السوداء في سقف حجرتي (لو كنت مثلي رجلا بلا شواغل لفعلت ذلك) • غير ان شخير أبي مزق أعصابي المرقعة ، فاستبدت بي الرغبة في ترقب مولد النهار ، الا أن الشمس تأخرت عن المجيء ، فغرقت في بئر النوم •

خارج الشعور داخل التشهي

كانت المرأة بيضاء فاخرة ، وفوق أن تقاوم • لكن ذلك لا يكفي للاتهام •

كان الرجل يتردد دائما على البيت ، لعلاقة صداقة يعقدها مع زوجها • ومن يوم ما رآها ، وهو يكتم الرغبة • ظل يتردد في السر ، مرة ، ومرة لزيارة صديقه • غير أنه بعد مضي فترة شهرين ، طويلة ، لم يفلح في جعلها تقف على ما يريده • فبدأ يشكو الاحباط ، ولم تعنه المرأة فبقيت تغلق على داخلها •

ـ وكان الرجل يدرك انه ليس الحب ، وليس من ايقاع في القلب ـ• وفي آخر الليل ، يجلس الى نفسه ، ويقرر : أن يضمها ولا يطلقها ، حتى تمر أصابعه على كل جسدها •

وعندما يجلس الى قربها ، والشهوة تعتمل في عروقه ، يتبين انه لا « يشعر » بها • يحاول أن يمد يده فلا تطاوعه • ويحاول أن يقول كلام الغزل ، فلا يتمكن • ويحاول اختصار المسافة ، لكنه يظل في البعد عنها •

حتى ذلك المساء ، قالت وهما لوحدهما :

« أنت مهذب • لست مثلهم » : وكان في تلك اللحظة على ذروة الرغبة ، فأحس بسخونة العرق والاتهام • لكن زوجها جاء ، فخرج •

لم يستطع الاغفاء • انه الاتهام مصوب اليه بدقة ، ولابد لها ان تدرك ، انه تماما ، مثلهم •

في الصباح جاء بيتها • كانت كعادتها مغلقة ولا تعينه • مشى في الرواق حتى قابلها ، وجهاً الى وجه • التقط اعصابه ، ودفعها الى الغرفة ، وهو يجاهد في تغطية ارتباكاته •

كادت ترفض • لكنها لم تكن تريد ان ترفض •

وعندما انتهى ، رمقته بعيون دهشة واعتراف •

ولما خرج ، كان مزهواً • ذهب الى مكان العمل ، والانتصار يشيع على مدى كيانه ، كما يطرأ عليهم دائماً •

وبعد ساعات ، كشفت زميلته عن بعض ساقها الداخلي ، فلمح ذلك فجأة • وعندها ـ فقط عندها ـ تنبه الى ان جسدها كان بالضبط : فاخرا ابيض ، وفوق ان يقاوم •

الولد ينتصر على النبوءة

ظل الولد يقهقه طيلة تلك الليلة ، والام تنهره فلا يكف • فتضرعت الى السماء « يا الهي • ليكن ختام ذلك خير » •

وفي الصباح ، تأخر الولد في الاستيقاظ ، فانتابها ذعر عليه • هزته برفق ، فلم يفتح عينيه ، فقالت لحالها •

« كم ضحك الليلة الماضية • حسبت ذلك » •

وشرعت الام تنتحب بالدموع امام جارتها ، التي اتصلت بالطبيب • وفي أثناء هذا ، ظلت تبارك السماء ، وتسأل ان يبقى لها ايمانها •

وعندما اتى الطبيب ، اشار أنَّ في الولد حمى ، وعينيه مرمدتين •

« لم تصدق المرأة ذلك » •

وبدت كما لو انها ضائعة المشاعر • ثم اختلط لون السماء بالرماد • اما الطفل فاستعاد بعض عافيته ، اذ انشأ يقذف السقف ، بالدمى الطرية الملونة •

أزهار الخير والشر

كان الرجل في مطلع عمره • يعصف بالحياة ، عامرا بالثقة • وكان يضع – وهو الذي لم يعهد ترابه – اصيصا للأزهار مقابل سريره ، قريبا الى باب الغرفة • ولما كانت الازهار تنتمي لبلاد أخرى ، فقد وجب عليه ان يبذل لها عناية خاصة •

جاء بها وبراعمها دقيقة ، والاكمام غير ظاهرة بعد • بينما أمل الرجل لم يكن ضئيلا في انبثاقها وتفتحها • ورغم انه لا يعرف من قبل ، في الاحاطة بالازهار ، فقد كفاه الاصغاء لملاحظات البائع العجوز • وطالما ظل النبات أخضر نديا ، ظلت العاصفة خضراء في نفسه تجاه الحياة • حتى اكتشف ان حرصه حيالها ينمو ويتصل بنفسه – وهو الذي عمله لا يتوقف ، يستحق من القلب انتباها لا يتوقف – • ثم بدأ قلق خافت يشيع في داخله • ولم يكن يرجو الا الازهار ذات اللون البنفسجي الهادىء الذي يفتنه •

وعندما يأخذ نومه خارج جدرانه ، ويكون في العمل معهم ، فانه يقبل على الغرفة لاهفاً ، ويلقي على النبات الغريب ، عيون الحدب والرجاء ، قبل ان يمضي • وفي كل نهار آخر ، وقبل ان يرمى عليه نظره ، صار يرى وكأن احلاما قاتمة ، مرت بنومه في شأن النبات – وذاكرته في العادة تلتقط عند الصباح اقل الاحلام – • وفي ذلك الصباح المتأخر ، استيقظ متأخرا عن العمل ، الذي ذهب اليه •

وحين ادرك الوقت في الساعة ، شعر بالخجل منهم ، وأصيب بالاسف

والندامة • ان الاصيص في مكانه ، قريب من مرمى عينيه ، ورجع احلام الليل يطوف جدران رأسه • وقال في نفسه وهو يشاهد الاصيص العزيز « لابد أنهـــم تأخروا لاجل النائم في أوقاتهم • لابد انهـــم انتظروني وانتظروني » •

ثم انتشرت في جسده رجفة دفيئة ، وهو يتملى • البنفسجي الهادىء الذي يفتنه • ودام يحدق اليه ، حتى لبثت فيه الرجفة ساكنة • بينمـا اتخذت الاشياء وضوحا مغايرا ، لكنه حار •

وفيما هو يمضي اليهم لاهفا ـ وعامرا بالثقة ـ كان يجهش في دخيلائه بالضحك العميق •

في هذه الأثناء

« سيدي • ارجوك سيدي ، لا تفعل ذلك » •

ولم يسمع العسكري • اطلق رصاصة واحدة ، فسكت الطفل • وظل الرصاص يزخ على الطفولة التي تتلو الضراعة • فخجل الآباء ، حتى استثيرت في بعضهم الرجولة ، ولم تبق قابلة في العالم ، الا وأحست الاثم •

وفي هذه الاثناء ••

في هذه الاثناء التقط الاب الصيحة ، فدخل ملهوفاً شاعراً انه اصبح اثنين ، فمسح على الطفل بقبلة ، وجبين المرأة •

تطلع اليها بحنان • وتطلعت هي الى الطفل ، الذي صارت به اثنتين ، فغمغمت بانتشاء • ثم قال لها :

ـ كان ذلك شاقاً ؟

ـ ذلك لا يكون الا شاقاً •

فضاحكها •

ـ نفعلها ثانية ؟

فضحكت •

ـ ليكن المحب دائماً •

ثم حدق بها •

ـ تحملت الالم بشجاعة ، حقاً ؟

فرفعت عنه ، عينيها .

ـ كأنما تكتب قصة ، تحب كتابتها .

فابتسم الصمت بينهما .

وهنا جاء الاعداء . فحمل بندقيته ، وذهب الى الحرب ثلاثين يوماً ، رجع منها متعباً وفارساً ، فاستراح في احضانها .

ـ اشتقته كثيرا ؟

ـ كان يكبر في خاطري كل يوم .

ـ كنت تخاف الموت ؟

ـ من اجله .

ـ كان ذلك مروعا ؟

ـ لا يكون ذلك الا مروعاً .

ـ وتفعلها لو جاؤا مرة أخرى ؟

ـ ليكن الوطن دائما .

فسكنت اليه مشدوهة ، وفي عينيها سؤالات .

ـ اقدمت عليها حقا ؟

فأخفض عنها عينيه .

ـ كأنما تقدمين على لوحة ، ترغمك عليها .

فنظرت صوب الطفل ، واتجهت الى وجهة أخرى .

ـ لكنها قتل .

فجاءت الى ذاكرته ، صور الجثث الموتى ، فتنهد ببطء .

ـ كنت لا اتمنى ذلك .

فضاقت ملامحها .

ـ كنت لا اتمناك عسكرياً .

فشعر بفداحة اللغة • شرع الطفل يبكي ، فأخذه اليه وغنغنه ، ثم وضعه في السرير الصغير • ونام الجندي مع امرأته • اصبحا واحدا • وفي الصباح روت له الحلم : انها في شوارع المدينة رأت رجالا بملامح صلفة ، لا ينتسبون الى مكان ، ولا تنتظرهم النساء في البيوت • مدججين بالرصاص ، ويطاردون كل الاشخاص ، وهم في عجلة من أمرهم •

وانهم قتلوا لها صغيرها •

وفي هذه الاثناء ••

في هذه الاثناء ، « ضربت القابلة خدَّ الطفل الوليد بقوة ، وقالت له : هذا هو العالم » •

فسمع منها وقال : ذهبت اليهم ثلاثين يوما ، وفي المرة القادمة لن أتردد •

فقالت ملهوفة • ـ سيكبر الصغير •

فأطرق الرجل وقد اتسعت عيناه • انهم يصلون الى السرير أيضاً •• بيننـا •

فتشبثت به المرأة ويدها على القلب ، وكانما سمعت في داخلها « اذن • هذا هو العالم ؟ » •

امرأة في حياته

تطلعت اليه الممرضة الجميلة بحنـــان غامر وقالت « انت رائع • تشجع » • فتشجع الولد ورمقها بنظرة طويلة باتجاه واحد ، نسي فيها الوجع والأم •

وبعدما خرج الولد من المستشفى وصار رجلا ، رأى في الشارع الرئيسي امرأة صغيرة السن ، وجميلة • فاهتز من داخله ، وأحبها • وبعد أيام قليلة ماتت المرأة ، فاجتاحه حزن قابض •

(وفيما أنا في الحزن ، تصاعد من آخر ذاكرتي وجه شفيف وشديد السرية ، وكان لتلك الممرضة • فادركت بحرقة ان المرأة التي غادرت « هي » • غير أنه لم يكن هناك ما يدفعني للتساؤل : ان كانت تلك الممرضة حية أو ميتة ، هذه الاوقات) •

العزاء يسقط عند المفترق

يوماً كنت اجتاز ذلك المفترق .

لم تكن مدينتي ، وكنت مدفوعاً للاقامة فيها .

انني الرجل الوحيد مع الحزن في غرفتي . فلم استطع للآن ومن ١٩٤٨ ان المس شيئاً واضحاً واحداً ، سوى اني : خطأ .

وتصادقت مع شخص احببته ، وجعلت احكي له في الطريق الى المفترق ، عما أنا .

وحتى الاشياء الصغيرة ، تستدعي التفكير البعيد (ليس من الضرورة القول بصدد الاشياء الصغيرة ، التي وحدها ، تستحق) .

أما ذلك اليومي المعهود ، عند الاجتياز ، فكان بكل وضوح ، عندي !.

هكذا افكر : ان هذه الامور في العالم ، كلها خطأ ، وكلها صح . وفي ذلك مدعاة لمزيد من الحزن والاسى .

فتهيأنا لتجتاز الشارع ، وقلت له .

ـ اقول لك شيئاً ..

وقفت الى لحظة ، ففعل مثلي . عند ذلك ، اضاءت الاشارة بالاحمر . كان كلامي سيصبح بلا معنى ، فقد ولّى الاخضر ، اليومي . فاستشعرت سقوط العزاء ، وذهبت الى الصمت .

فراشات البحر

« الى زبيدة ... »

جاءت في وقت متأخر ، بعد ان استبد به اليأس والرماد . فقال لها وهو يسائل نفسه : عن ماذا كان يفعل من قبل .

ـ « كيف تأخذ الصدفة ، شكل الختم هكذا ؟ » .

وكأنها تتوقع منه هذا الكلام . فأسدلت اصابعها على شعرها المسدل ، واطلقت ضحكة بيضاء امارة عن فرح (ربما بدأ سابقاً) ، وتحدثت في موضوع آخر لكنه غير مختلف .

وبعد ان ساد صمت قصير ، قالت .

ـ « البحر لا يكف عن اللعب . كل ما رأيته رأيت فيه بحرا آخر » .

كان السيد الازرق في تلك الساعة ، يرتمي بنعاسه الجبار ، الى جانب الرجل والمرأة ، وقد اتصل لونه بلون الافق . وكان هو يعزف عنه ويرى فيه تحدياً مبكراً وغير متكافىء (كأن تقول : رجل عنده نوايا البحر وهادىء مثل فراشة .. يملأ غروره بيت سكر مثل : البحر غريق تحت فراشات بيضاء) . ولما لم يجد ما يضيفه ، باعتبار ان الموضوع لا يثير خواطره تلك اللحظة ، فقد فتح موضوعاً آخر ، كان في ذهنه من قبل ، ولم يكن مختلفا . فقالت قبل ان يكمل حديثه ، وقد اوشكا من خاصرة البحر .

ـ « ومع ذلك اتمنى لو ارمي نفسي فيه • انه يثيرني » •

ومرة أخرى لم يجد ما يضيفه ، اضافة الى رغبته التي انقطعت في مواصلة الحديث • فقال لنفسه : « لنبدأ من الصمت •• » فسارعت الى القول •

ـ « لم اعد اعرف من اين نبدأ •• » •

فألَمَّ به شعور ضيعان صلة الوصل ـ وفداحة السر بينهما • ولم يستطع ان يغالب امتقاع وجهه ، وهو اذ يتخيل البحر وقد ابتلع الفراشات البيضاء الصغيرة ، ثم انقلب الى غول هائج ازرق يتهدده من كل الجهات ، وهو وحيد في رماده •

كتاب النهار الأسود

توقفت عن القراءة عند الصفحة التاسعة ، وكان الكتاب في الحياة والتفكير في الحياة • وكنت متشوقاً للحصول على الكتاب ، ولما قرأت عناوينه ومطالعه ، تهيأ لي اني توقفت به • سيما وانا رجل متروك ، وعزاءاتي قليلة • ورأيت في النهار ، اني عندما في الليل ، الوذ الى غرفتي وحيداً ، سأنحني على الكلمات ، وامضي الوقت في انصراف •

وفي ذات اليوم ، سمعت حولي من الكلام ، كلاماً •

ـ انني سعيد كل الاوقات •

لم يكن الرجل نبيهاً • فقد كان على ثقة ، بان الرأس ليس ضرورياً كل الاوقات • وكان يعتبر جسده •

ـ يبدو انه كتاب قيم ؟ •

فهززت رأسي •

ـ لو معي من الوقت لقرأته •

فتطلعت اليه بغير اعجاب •

ـ تقرأ كثيراً استاذ ؟ •

ـ لا اقرأ كثيراً •

ـ ضروري ان اتخلى عن كل شيء ، لاقرأ ؟ •

ـ ليس ذلك ضرورياً •

ـ لكني احب الموسيقى •

- الموسيقى جميلة .

- خاصة الموسيقى الجميلة .

-

- واحب السينما . الافلام عندما تكون واضحة ساطعة .

-

- واحب المسرح ، الذي لا يشبه الكتب .

-

- واحب المنحوتات .

-

- وكذلك الاطفال والشجر والبحر والسباحة في البحر والضحك والاكل الطيب والسفر والتدخين والنساء الجميلات والنوم . واحب الرجوع الى وطني ، في الاول والاخير .

- كثيرة الاشياء التي تحبها .. ؟ .

- جدا . ولا افتش عن السعادة . تقرأ هذا الكتاب دفعة واحدة استاذ ؟ .

- اراك غداً .

- ثم فتحت الكتاب . كان رأسي ضائعاً ، وجسدي تعباً ومنفصلاً عني .

- صورة المرأة التي احببتها لا اعرف كيف التقطها ، وحدود هذا الحب من كلمات .

ثم قرأت في الصفحة الاولى ، مرة وأخرى . صارت العاشرة في الليل .

تمنيت لو اكون مع « آخر » . المدينة من حولي ، بعيدة ، تتنفس وتتعدد . الاهلون في كل الامكنة .

ثم قرأت في الصفحة الثانية الى التاسعة • لم افهم شيئاً • كانت الكلمات واضحة ومقنعة ، وبساطة • لكن الكتاب من ورق وحبر • كانت تضغط علي • راودتني رغبة في الخروج • فكرت اني من وقت طويل ، حاولت دخول المدينة ، لكنها رفضت الاقتراب مني •

والآن : ان اضيع في مكان واحد ، اسلم من امكنة عديدة • حتى فكرت ان الحيطان هي اربعة بالفعل ، وتمنع عن كل شيء • لا تحكي ولا معنى لها • ورجعت الى وراء ، فراعتني صحراء من الحبر والورق والنوم ، ولا شيء • وحتى نصف الليل ، بقيت معلقاً بين الصفحة العاشرة والباب ، فأصابني الغيظ ، وأصبحت لوحدي في العتمة • ولم تكن تلك سوى نهار اسود •

ليل الجسد والقلب

انحنى على الزجاجة ، ببطء وسكينة وتلذذ نبيل • وكان يغشاه ذلك الخوف من وقت قادم ، ولا ينحني فيه على زجاجها ، أو على غيرها •

ولقد جاء الليل كما يجيء كل يوم • اسود ، أعمى ، ومغلقا من جميع الجهات ، وهو الليل الذي يكتنف ليل الجسد والقلب • فهتف متهيئاً هذه المرة ، أيضا « ها زجاجتي واني انتظر » وتبسم ابتساما قليلا • لكن هذا الانتظار بدا له شديد الغموض ، الى انه فادح ، الى كونه ممضاً • فآثر ان يترقب « نتيجة واقعية » : ذلك الومض الكريم الذي يشي بالرغبة في الحياة ، وينفي احتمال الموت القريب • ان ذلك الومض وحده ، من شأنه ان يجعله يتخلى عن محاولة تلمس ، ما يجب تسميته تحديدا ، مركز النظام والفوضى •• في قرارته •

كان الليل الاسود المحيط يتدفق في الخارج ، وقد ترك فيه اصدقاءاً نادرين ، لانه وصل آخر الامر الى عدم الانفعال حتى بهم ، فقرر التوقف عن لقياهم ، خوف ان تنقطع العلاقة على نحو باهت ومخجل •

ثم تطلع حواليه ، بدافع الاتصال البديهي ، فلم يكن المطعم ممتلئاً ، وكان هو ، على حال المطعم ، ممتلئاً فارغاً • ثم هجم على الزجاجة ، ورغبته تتسارع في تجاوز مذاقها ، الذي بصورة مجردة ليس سائغا • فلما عبر كأسه الثاني تصاعد ذلك السؤال القديم « متى يرجع هذا الصبي الى

صوته ؟ ، وشاع شجن كثيف في اعماقه ، وبدأ يغالبه بينما يطوف السؤال حول الكلمات ، ويطبق عليها ، ويباعد ما بينها • وطفق يغالبه حتى انبثّ في المخيلة أخيرا ذلك الومض الكريم الذي يشي بالرغبة في الحياة ، واشتعلت في القلب رغائب عزيزة شتى • فوقف بغتة ، رهن رغائب عزيزة شتى •

وقف بين يدي الليل الاعمى ، عند الباب ، ولما هم بالخروج لم يصدق : كأنما غادر شخصاً آخر ، ليسترد ببساطة شخصاً مصدوع الرأس• فاستدار عازماً على تصفية هذا الفساد حتى الانجاز (الانجاز يعني الاجهاد التام ، حتى الغرق دون استغراق في النوم • أما النوم فلداعي السلامة من ذلك الالتباس القاتل : آذا ما ذهب لأي مكان ، يداخله الشعور بأنه أقحم فيه ولم يتجه اليه • وانه يتعين عليه ـ بصورة قاطعة اكيدة ، ومن أجل الحياة ـ ان يكون في مكان سواه) •

الفاقد

كان صديقي أبيض اليدين • ولقد طاف وتعب وشاخ ، فانتهى وحيداً • وكنت احدب عليه • فخلف الكتب ، وراءها ، وراء الكلمات الحشرات ، ينزلق ويرتمي سر أو اثنان •

عينا صديقي تتوامضان من اثر الرغبات القتيلة ، وفي آخر الليل تبتلان ، ويكاد الرجل يهم عزيزاً ان يبكي ، فيشيح بوجهه عني •

هو ينضد افكاره بهدوء الشيخ ورغبته ، مثل الصبي الشاطر يعين أمه ، يهيء سرير نومه ، قال : انه اليوم رآها ، ففرح بها ، وهي فاتنة • سعيدة بحياتها : تتدفق ، وقد لا براها • وكمهدها وقعت في القلب موقعا • قال انها جاءت (ماذا كان يفعل ، ماذا سيفعل ؟) • جاءت فاتنة للرجل الوحيد وذهبت ، ولم يبرح مكانه •

كان يخاف (هل الانسان حيوان خائف ؟) خاصة في الليل المتأخر ، غادرونا ، فانتبه الى نفسه ، وحافظ أن تكون بعيدة سليمة • قال ذلك بجلال الخوف ، كأننا معا في بيت ، وكأنني بالذات في غرفة أخرى •

وقلت (لكني لم اقل) : اذن مرة اخرى •• مرة اخرى اذن • كان محتقنا ومختنقا وشديد القابلية على الايذاء ، لكنه متميزا أسى • فطاف حول حفرة الانهدام الاستسلام ، ولم يعتم ان سقط • بات قبالتي ، وضع نفسه داخل الصورة • ثم دلّى فانزوى الى •• الى « الاعماق » مثلا •

كان يابساً • كان في هذا الزمن يابساً • أو هكذا : طفل من اول عمره محبوس داخل محارة خارج البحر مغلقة يابسة هائمة بين الرياح وجدرانها • وكان صديقي طيباً • لا تلين عريكته ، ومن فرط حبه للبشر لا يطيقهم • البشر الفادحين الغليظين •

مهلا : ان الفاتنة جاءت وذهبت تيتي تيتي ، وفي وقت متأخر من الليل الأليل ، وفي وقت قصي من الانتظار الممزوق • والرجل تضغطه الكتب وتبريه ، يقول وللتاريخ : لا •• ! لا يهم •

واذا ما تبسم وضحك وسال الحبر من فمه « طيبة ولطيفة ومهذبة » وأيضا « لا تقاوم » وأيضاً « تضعني موضع الاحترام » دقت ساعة قلبي عليه ، فجنت أعصابي ، ولم لم أصدق •

وعليه ، فقد فضحتني عيناي •• العيون الفضاحة • فامتقع وجهه بسببي واستدارت عيناه علي ، ببطء وتصويب وهجوم • واذا ما شرع يجوس يتفرس يحدق بي ، حتى أحاطتني عيناه وأطبقتا علي •• أغمضت من الهول عيني •

فيا أيتها الآلهة في مكانك • لقد كان ذلك صعباً •

سلام على الفقراء

•• في أول النهار ، في أول الركض والاصطدام ، في زقاقنا العتيق • زقاقنا الذي في الجنوب من المدينة • اخذ الاولاد المنبوذون ، يطاردون سيارة البيك الطويلة ، التي اضطرت بحكم النية في الوصول سريعا ، من أقرب الطرقات وأيها ، لعبور زقاقنا المشهود • و ، وكان البيك يجلس ، كالعادة ، في الخلف ، الى اليمين • ولان البيك زعل ، كان يجب ان يزعل السائق العزيز • فاستدار هو : « أبو الوفا » اليهم وهرس من بينهم ، معهم ، لحم ولده الصغير •• الخ •

الفهرست

أبناء الآخرين	٣
وجهـاً لوجـه	٩
العري في صحراء ليلية	١٤
علبة تبغ لعبد الحميد	١٩
فلسـطين	٢٥
اللـؤلـؤة	٢٩
الحب يؤدي الى الموت	٣٠
الشوق الى الأرض الطيبة	٣١
العانس لا تفكر كالآخرين	٣٨
لعبة اليقظة والنوم	٣٩
خارج الشعور داخل التشهي	٤٤
الولد ينتصر على النبوءة	٤٦
أزهار الخير والشر	٤٧
في هذه الأثناء	٤٩
امرأة في حيـاته	٥٢
العزاء يسقط عند المفترق	٥٣
فراشات البحر	٥٤
كتاب النهار الأسود	٥٦
ليلى الجسد والقلب	٥٩
الفـاقد	٦١
سلام على الفقراء	٦٣

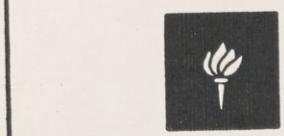

Elmer Holmes
Bobst Library

New York
University

NYU - BOBST
31142 01270 6449
PJ7860.I56 U7 1972
al-ʿUryf

PJ
7860
.I56
U7
1972
c.1